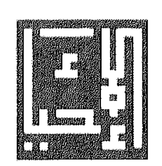
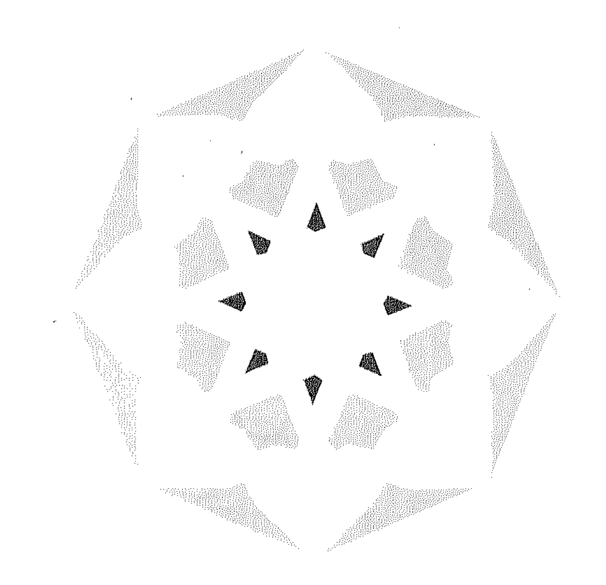


جمال البنا

التعددية في مجتمع إسلامي



دار الفكر الإسلامي

جمال البنا

التعددية في مجتمع إسلامي

دار الفكر الإسلامي
١٩٥ ش الجيش - ١١٢٧١ القاهرة - هاتف وفاكس: ٥٩٣٦٤٩٤
e.mail: gamal_albanna@infinity. com.eg
http: // www. islamiccall. org

جمال البنا

رئيس الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل
مدير مؤسسة فوزية وجمال البنا
للثقافة والإعلام الإسلامي
رائد دعوة الاحياء الإسلامي

١٩٥ ش الجيش ١١٢٧١ - القاهرة - هاتف وفاكس ٥٩٣٦٤٩٤
e.mail: gamal_albanna@infinity.com.eg
http://www.islamiccall.org

مقدمة



والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تصور البعض أنه لما كان الإسلام دين التوحيد. فإن التوحيد ينسحب على كل شيء فيه بما فى ذلك المجتمع ومظاهره وتجلياته من نظم وأوضاع وفنون وآداب وعادات وسلوك وأزياء الخ... فلا يوجد إلا نمط واحد فى كل مجال من هذه المجالات وهو ما يضع المجتمع الإسلامى فى قالب واحد لا يتغير ولا يتطور ولا يتعدد .

وقد يُذكر فى هذا الصدد "الوسطية" التى ينادى بها بعض المفكرين باعتبارها الموقف المختار للمجتمع الإسلامى تجاه التيارات المتعارضة يميناً، ويساراً، شرقاً وغرباً، وهو تكييف سليم، وقد نص عليه القرآن. فلم يقل القرآن "أمة التوحيد" ولكنه قال ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾. ولكن هذا نفسه لا ينفى التعددية، بل هو يثبتها لأن الوسطية تفترض وجود الإفراط والتفريط. التحلل والتزمت. الإسراف والتقتير الخ... ولا يمكن تصور وسطية حيوية بدون تعددية، وإلا تصبح هى الوسطية الرياضية التى تعنى التوسط بين نقطتين أو أنها تتجمد فى قالب واحد وتأخذ طابعا ثبوتيا، وهو ما يتنافى مع حيوية وديناميه الإسلام .

ويرى هذا البحث أن التوحيد في الإسلام إنما أريـد بـه الله تعـالي وحده، وأن سحب هذه الصفة (الواحدية) علي غيره أمر لا يجوز، بل إنه قـد يصبح شكلاً من أشكال الشرك. لأن الله تعـالى قـد تفـرد بـهذه الصفـة، واضفائها على غيره شرك به. فتوحيد الله يستتبع تلقائيا التعددية فيما عداه .

ونحن فى استخدامنا لهذه الطريقة إنما نتبع الأسلوب الفريـد الـذى صاغه الإسلام فى إثبات الوجوب بنفى ما عداه. والشاهد الأعظم على هـذا هو "لا إله إلا الله" فهنا يثبت الإسلام وجود الله فى الوقت نفسه الذى ينفى مـا عداه ولو انه قال "الله موجود" هذه الصيغة وإن أثبتت وجود الله، ولكنـها لا تنفى ضرورة ما عداه - أى أن يكون له أنداداً - فى حين أن "لا إلـه إلا الله" تثبت الله وتنفى ما عداه .

ومن هنا فإن لقب "دولة التوحيد" الذى يرسله البعض فـى اعـتزاز وفخر ليس وصفا سليما من ناحيتيه، فالإسلام ليس دولة، وإنما هو[1] أمـة، وهذه الأمة تأخذ بالتعددية لا بالواحدية كما لا يمكن أن يقال "دولة الفضيلـة" لأن نصيب الدولة فى إقامة الفضيلة أو تعزيزها تافه، بل قد يـسودى تدخـل الدولة فى هذا المجال إلى المساس به. والتعبير الصحيح هو "أمة العـدل" لأن الإسلام بالنسبة للتجمع البشرى "أمـة" ولأن طابعـه الرئيسـى فـى القيـم الاجتماعية هو العدل .

وقد وضع الإسلام للمجتمع البشرى كيفية أوردها القرآن الكريم تقـوم على تفاعل ركائز أو قوى. فهناك هداية الأنبياء التى تعين الإنسـان علـى سلوك الطريق المستقيم، وهناك غواية الشياطين التى تلقى بـه فـى لجـج الشهوات والشرور، وهناك الإنسان نفسه الذى يملك بما غرس الله فيه مـن عقل وفطرة أن يتجاوب مع هداية الأنبياء، كما يمكن - فى حالات أخـرى -

---

(١) ستكون هذه الإشارة موضوع الكتاب التالى من دفاتر الإحياء "الإسـلام ديـن وأمـة وليس دين ودولة .

أن يستسلم لغواية الشياطين بالتفصيل الذى سيرد فى هذا الكتاب، فـــالمجتمع البشرى له طبيعة تعددية .

والمجتمع الإسلامى لا يشذ نوعيا عن المجتمع البشرى، لأن الإنسان مسلما أو غير مسلم، له طبيعة واحدة، ولكن المجتمع الإسلامى يختلف فــــى الدرجة وليس فى الطبيعة، وفى بعض التجليات، وليس فى كلها، فلا جـــدال أن فى الإسلام قوة خاصة تكيف سلوك المؤمنين به، وفيه من الضمانات مــا تحول دون الاستسلام الكامل للشهوات والشـــرور أو الانســياق وراء خطـأ الشيطان. أو انتهاج السرف والشطط، ولكن هذه الضمانات قد لا تحـول دون ممارسات أدنى من ذلك لأن للطبيعة البشرية – بعد كــل شـــىء – حكمـــها وضعفها، ولأن الله تعالى عندما جبل النفس البشرية "ألهمها فجورها وتقواها"

وأى محاولة لفرض قالب واحد مصمت علـــى المجتمـــع بدعـــوى التوحيد الإسلامى، أو حتى الوسطية الإسلامية، وأى تجاهل للعوامل العديـدة التى تؤثر فى هذا المجتمع أو تقف فى وجه التعددية تكون محاولة محكـــوم عليها بالفشل بعد أن تستهلك وقتا وجهدا كان البناء الرشيد والقصـــد الســديد أولى بهما وهذه هى قيمه المعرفة، إذ هى تميز ما بين الخطأ والصواب كمـا تهدينا إلى السبل الموصلة والوسائل الناجحة. فإذا لم تكن لدينا المعرفة بـــهذا كله تخبطنا وتوزعتنا الطرق وغلبت المماحكة أو غرتنا الأمـــانى وخدعنـا السراب فنمضى طويلا دون أن نصل إلى شىء .

ولكى لا يحدث هذا وضعنا هذا الدفتر من دفاتر الإحياء، وأن يكـون الثالث، بعد الحرية وتثوير القرآن هو ما يعبر عن الأهمية الكبيرة للموضـوع فى الفهم السليم للإسلام ...

جمال البنا

القاهرة فى : أبريـــل ٢٠٠١
المحرم ١٤٢٢

الفصل الأول
توحيد الله يستتبع التعددية
في كل ما عداه

لم يصل دين من الأديان بتوحيد الله إلى الحد الذى وصل إليه الإسلام، وقد أهدرت اليهودية المعنى المطلق للتوحيد عندما جعلت الاهها الواحد إلها خاصا ببنى إسرائيل، ومن ثم فلا معنى للحديث عن التوحيد فى اليهودية. أما المسيحية فقد ألقت ظلالا كثيفة على الاهها الواحد بفكرة الأقانيم الثلاثة، فإذا أريد التوحيد بأجلى معانيه فليس إلا الإسلام .

فالله فى الإسلام هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفئا أحد. وقد أسهب القرآن الكريم فى عرض صفاته تعالى وكلها تصب فى هذا المعنى فهو الذى لا تدركه الأبصار وليس كمثله شىء. ونهى القرآن عن أن يضرب المؤمنون له الأمثال أو أن يجعلوا له أندادا لأنه لا مثيل له .

وقد أمل الفلاسفة القدامى أن يصلوا إلى الجوهر الفرد الذى لا يتجزأ، وظن بعضهم أنه يمكن الوصول إليه، وأنه سر الكون، ولكن هيهات فقد أثبت العلم الحديث أن ليس فى الموجودات والقوى والعناصر جوهر فرد أو عنصر لا يتجزأ فكل شىء يتجزأ إلى ما لانهاية، وكل جزء يرتبط

وينفصل عن بقية الأجزاء والجميع يدورون بانتظام أو بالتعبير المعجز ﴿كل فى فلك يسبحون ﴾ .

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الله الواحد الأحد فإنه يتحدى الإدراك الإنسانى رغم ما يبدو من بساطته وبداهية فكرة الواحديه فما أن يفكر الإنسان حتى يعجز عن تصورها لأنه يعجز عن تصور كيان غير مركب من أجزاء وهو يتصور أنه إذا انتفت الأجزاء انتفى الكيان، ولا يوجد شيء، وليس إلا العدم ومن ثم فإما أن يكون مركبا من أجزاء وإما أن لا يكون، خاصة وأن القرآن يعزز ويعمق فكرة التوحيد وينزهها فنفى عنها كل شوائب التجسيد والتوثين، وأضفى عليها فى الوقت نفسه الحياة والقوة والإدراك والحكمة والسمع والبصر و٩٩ اسما من الأسماء الحسنى بجانب الصفة الهامة التجريد ..

وعندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه "الباقى" أو "الذى لا يموت" فإنه بالتبعية ينفى أن يكون لشيء أو مخلوق هذه الصفة- فكل ما نراه يتعرض للتغيير، وللموت وللفناء- ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. والموت هو مصير الجميع فى هذه الحياة الدنيا ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾. ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾ .

ولو قلنا إن هناك خالقا غير الله وباقيا غير الله لكان هنا شركا بالله وخروجا عن "التوحيد" الإسلامى لأنه يشرك أحدا فيما خص التوحيد الإسلامى الله تعالى – وحده – به .

وكذلك عندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه الواحد الأحد. فمعنى هذا أن ليس فى الكون أو المجتمع أحدية ولكن تعددية يمكن أن تصل إلى مئات وألوف الصور .

وقد ضل الفلاسفة وبعض الذين تحدثوا عن "وحدة الوجود"، ووهم الشعراء الذين تصوروا الله تعالى فى الشمس البازغة والزهرة اليانعة والجمال الإنسانى فهذه كلها من آيات الله فى الخلق فى أحسن تقويم، ولكنها ليست صفاته وأبعد منها أن تمس ذاته .

كما ضل كل من تصور أنه يمكن بحكم إيمانه وتفانيه فى حب الله تعالى أن يصل إلى درجة من القرب بالله توجد نوعا من التوحيد فهيهات أنا للإنسان أن يصل إلى هذا ولم يصل الرسول إلا إلى "قاب قوسين" من سدره المنتهى لأن ما بعد ذلك يخالف طبيعة التوحيد ويمكن أن يصل إلى حد الشرك .

وعندما يقول الله تعالى فى عشرات، أو مئات الآيات أنه الخالق، فانه ينفى بالتبعية أى خلق لغير الله تعالى ويصبح من ينسب قدرة الخلق إلى غير الله مشركا، وهو الذنب الوحيد الذى أعلن الله تعالى أنه لا يغفره إلا أن يتوب .

وهو لا يكتفى بهذا المعنى الضمنى، بل يعلنه مرارا وتكرارا فمن غير الله يخلق ؟ إن كل شىء عدا الله تعالى مخلوق ..

ووصل حرص الإسلام على إفراد الله تعالى وحده الخالق. أن حرم الإسلام فى المرحلة الأولى لظهوره التصوير ونحت التماثيل لأنها نوع من "الخلق" يمكن أن يؤدى إلى الوثنية، خاصة والعرب حديثو عهد بها. فجاء فى الحديث "من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة " .

ولا يجوز لأحد أن يقول عن سيده "ربى" ولكن سيدى كما لا يجوز للسيد أن يقول "عبدى" ولكن فتاى ..

ولا يجوز لأحد أن يتألى على الله فيقول مثلا "والله لا يغفر الله له"! فمن ذا يتألى على الله، ومن ذا يعلم ماذا سيفعل الله .

ورفض القرآن فكرة أن يعبد العرب أوثانا ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ونددد بالذين اتخذوا أحبارهم أربابا دون الله، وفسر الحديث ذلك بأن هؤلاء الأحبار كانوا يحللون ويحرمون، وهذه المهمة هي ما ينفرد بها الله تعالى فقيام الأحبار بها نوع من الشرك .

بل حتى الشفاعة، التي ليست إلا رجاء وسؤالا، لا يجوز إلا لمن أذن الله وبضوابط موضوعة- لأنه إذا عدمت هذه الضوابط فيمكن أن تتحول الشفاعة إلى الشرك أو أن تقارب الشرك .

من هذا نفهم إن ما تطرق إلى بعض الأذهان من وجود مجتمع إسلامي أحادي الطبيعة لأنه يدين بالتوحيد إنما هو لبس ووهم بل مفارقة لأن الإيمان بتوحيد الله يستتبع التعددية فيما سواه، وأن هذه التعددية تصبح أمرا لازما بحكم الواحدية الإلهية، لأنها تعد الضرورة المنطقية أمام الواحدية الإلهية حتى لا تتطرق إشارة من شرك لمعنى التوحيد الإلهي- وفي الوقت نفسه فإن الله تعالى هو الذي أراد هذه التعددية ووضع لها آلياتها حتى لا يتطرق الخلل إلى هذه التعددية وبهذا نجد التوحيد الخالص بالنسبة لله تعالي والتعددية المنضبطة بالنسبة للمجتمع .

الفصل الثانى
إشارات القرآن إلى التعددية

كل من يتصفح القرآن الكريم، ويتأمل سوره سورة سورة، يجد أنه بمقدار ما حرص على إبراز وتأييد التوحيد بالنسبة لله تعالى بقدر ما أبرز التعدديات فيما عداه .

بل إن القرآن نفسه كان من اكبر مصادر التعددية، ذلك لأن أسلوبه المجازى وصياغته المتميزة للكلمة تجعل لها معانى متعددة، فما من كلمة قرآنية أو آية إلا ويمكن تقديم عدد من التفاسير لها لأن القرآن أنزل لكل المسلمين فى كل العصور وكان سر الأعجاز القرآنى أن الكلمة القرآنية تتسع لتأويل يتفق مع مفاهيم العصر الحديث، كما تقبلتها مفاهيم العصر القديم. بل إن الأحكام (العقوبات) القرآنية نفسها التى يفترض فيها التحديد- صيغت بصورة عامة مما استوجب أن تقوم السنة بدور كبير فى "البيان" القرآنى، ونشأت عن هذا كله مجلدات التفاسير والحديث وما بنى عليهما من فقه وسمح جو الحرية الأول بظهور المئات والألوف من التعدديات فى العقيدة والشريعة قبل أن ينغلق باب الاجتهاد .

فالقرآن نفسه يعد من أكبر مصادر التعددية، أو قل إنه الأصل فــــى التعددية الإسلامية .

ويوضح لنا القرآن صورا من التعددية أبعد وأكــثر ممـــا يتصـــوره أنصارها.. فهذا الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه ليس إلا وحــدة صغــيرة من ملايين أو حتى بلايين الكواكب تفصل ما بيـــن الأرض وبينـــها مئـــات السنوات الضوئية، ويفوق بعضها الأرض حجما مرات عديدة، ومره أخـــرى فإن كل هذه الكواكب والمجرات التى يضمها الكون ليست إلا عالم "الشهادة"، وهناك عالم آخر يطلق عليه عالم الغيب.. يبدأ حيث ينتهى عــــالم الشـــهادة، وفى عالم الغيب هذا جنة ونار، وعذاب وثواب ..

وفى عالمنا الصغير – كوكب الأرض – تتعـــدد الأنـــهار والبحـــار ويختلف الليل والنهار وترتفع الجبال والهضاب وتنخفض السهول والوديـان.. وهناك أنواع بمئات الألوف من الحشرات والطيور والنبات أما الإنسان نفســه فرغم أنه واحد يسير على قدمين فإنه متعدد الجنسيات والألـــوان والألســنة واللغات والأديان والمعتقدات فالكون الأرضى ومجتمعه الإنسانى أبعـــد مـــا يكون عن الواحدية .

واستبعد القرآن أن يكون الناس أمة واحدة ينتظمهم اتفاق ورأى إنـــهم مختلفون، وسيظلون مختلفين تميز بعضهم عن بعض ألوان البشــــرة ولغـــة اللسان والعقائد والانتماءات.. وأنهم فى الأمة الواحـــدة ســلف.. وخلــف.. يختلف بعضهم عن بعض وأعتبر من آيات الله ﴿اختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾، وما أكثر مادة "اختلف" فى القرآن "اختلف– اختلفتم– اختلفـــوا– تختلفـــون– خلاف– اختلاف– مختلف" فهذه كلها تدل على مساحة واســـعة للاختـــلاف وبالتالى التعددية ...

وإذا كان القرآن الكريم قد وصف أمة المسلمين إنها "واحـــدة" فـــهذا يعنى أنها واحدة فى عقيدتها ولكنه لا ينفـــى عنـــاصر التمـــيز والاختــلاف والتنوع بين شعوب وفصائل هذه الأمة داخل الإطار الفسيح للعقيدة الواحدة

على إن القرآن الكريم لا يكتفى بهذه الإشارات العامة إلى التعددية ولكنه يقرنها بعدد من القواعد التى ترسى التعددية، ثم يصل إلى الغاية عندما يقرر التعددية الدينية وتعايش الأديان جنبا إلى جنب .

ومن القواعد التى ترسى التعددية فى القرآن الكريم :

١. النص على أن الله تعالى خلق كل شيء من زوجين، وبهذا نفى الواحدية من المجتمع وأثبت التعددية ابتداء من زوجين أو "أزواجا" بصيغة المجتمع .

- ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾ . {٣٦ يس}
- ﴿والله خلقكم من تراب، ثم من نطفه ثم جعلكم أزواجا﴾ . {١١ فاطر}
- ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ . {٢٦ الشعراء}
- ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ . {٤٩ الذاريات}

فهناك تعددية حتمية أدناها " الزوجية " ..

٢. تقرير مبدأ الدرجات بما يتضمنه ذلك من تفاوت، وبالتالى تعددية وقد استخدم القرآن كلمة "درجة" ليميز بها بين فئات من المؤمنين فقال ..

- ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾ . {٩٥ النساء}

- ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ .

{١٢٣ الأنعام}

- ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ . {١٦٥ الأنعام}

- ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ . {٢٠ التوبة}

- ﴿ورفعنا بعضكم على بعض درجات﴾ . {٣٢ الزخرف}

وحتى بالنسبة للأنبياء ..

- ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات ﴾ . {٢٥٣ البقرة}

٣. تقرير مبدأ استباق الخيرات، وجاء تصوير القرآن لهذا المبدأ متضمنا حرية انطلاق الأفراد من منطلقاتهم الخاصة ..

- ﴿ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات ..﴾ . {١٤٨ البقرة}

- ﴿... ... لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما أتاكم، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ . {٤٨ المائدة}

- ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ . {١٠٠ التوبة}

- ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم نفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ .

{٣٢ فاطر}

- سابقوا إلى مغفرة من ربكـــــــم﴾ . {٢١ الحديد}

٤. تقرير مبدأ "التدافع" وهو أقوى من مبدأ استباق الخيرات، وقد جـــاء فـــى سورتى البقرة والحج .

- ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** لفسدت الأرض، ولكـــن الله ذو فضل على العالمين﴾ . {٢٥١ البقرة}

- ﴿إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقديـــر الذيـــن أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، **ولـــولا دفـــع الله الناس بعضهم ببعض** لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومســـاجد يذكـــر فيها أسم الله كثيرا﴾ . {٣٩-٤٠ الحج}

وهذا المبدأ يصور المجتمع وفعالياته، والصراع ما بين الحق ودعاته والباطل وأشياعه. كما يشير إلى بعض تجليـــات التعدديـــة فـــى الصوامـــع والمساجد والصلوات والبيع ...

٥. شمول العطاء الإلهى ..

تحدث القرآن الكريم عن الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخـــرة، أو الذين يستسلمون للمغريات، وتقبل هذا كأمر واقع بحكم الضعـــــف البشـــرى الذى يستولى على بعض الناس. وأوضح أن عطاء الله ليس محظورا عليـهم، وأن حسابهم لا يكون فى هذه الدنيا، وإنما فى الآخرة ..

- ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ . {١٩ – ٢٠ الإسراء}

- ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ . {٢٠ الشورى}

٦. **تقرير مبدأ حرية الاعتقاد– ولعل تقرير القرآن لهذا المبدأ– أعظم دليل على تقرير التعددية فى مبدأ هو صلب الأديان جميعاً : الاعتقاد، وجاء تقرير القرآن له صريحاً لا يقبل لبساً، وفى العديد من الآيات التى يضيق هذا الموجز عن استيعابها مثل :**

- ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ . { ٢٥٦ البقرة}

- ﴿... فمن يهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ . {١٠٨ يونس}

- ﴿من اهتدى فإنما اهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ .{١٥ الإسراء}

- ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ {٢٩ الكهف}

وأوضح القرآن أن الدعوة إلى الإسلام لا تستتبع قسراً أو إغراء.. أو حتى ما لابد وأن يساور نفس الداعية من أمل فى الهداية وضيق بالرفض.. لأن الهداية من الله ودور الرسول هو البلاغ وليس له أن يأسى لرفض الرافضين .

- ﴿ليس عليك هداهم.. ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ . {٢٧٢ البقرة}

- ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ . {٩٩-١٠٠ يونس}

- ﴿أنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾. {٥٩ القصص}

- ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ .

{٦ الكهف}

- ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى﴾ . {٥-٧ عبس}

٧. تقرير القرآن أن الأصل في الأشياء الحل، وفي الأعمال لاباحه، وهي وأن كانت صياغة فقهية إلا أنها مستقاة من الآية ...

- ﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ .

{٩٣ آل عمران}

- ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا﴾ . {١٣ الجاثية}

كما أن ذلك هو مفهوم جعل التحريم والتحليل وقفا على الله تعالى وحده فيما ينص عليه فى القرآن الكريم جليا وصريحا، ومثل هذه التحريمات معدودة ولا تمس الأصل الذى هو الحل، وما يعنيه من تعددية .

* * *

ويثبت تقرير القرآن لهذه القواعد، أن القرآن الكريم يتفهم المجتمع البشرى تفهما صحيحا وعميقا، ويحترم طبيعته، وأنه لم ير هذه الطبيعة جسما صلبا يستعصى على التطوير، كما أنه ليس جسما طريا تسير فيه سكين الإصلاح كما تسير فى قالب زبد.. وليس هو أيضا عجينه رخوة

هلامية، ليس لها قوام ويمكن تشكيلها حسب الإرادة أو الطلب. وإنمـــا هـــو كيان معقد مركب متعدد يتفاعل بطريقته الخاصة، وله الطبيعـــة العضويـــة للجسم الإنساني الذى يكتسب وجوده وحياته من الأعضاء والـــدم والانســـجه والأعصاب والعظام، كل منها يؤدى وظيفة محددة، وله الهيئة التـــى تمكنـــه من هذا وفى الوقت نفسه فإن عمل كل عضو من هـــذه الأعضـــاء يتلاقـــى ويتجاوب مع عمل بقية الأعضاء، وكلها تصب فى مجرى واحد وتســـتهدف غاية واحدة هى صحة الجسم الإنسانى وقيامه بمهامـــه نتيجـــة للتخصـــص الدقيق والتجاوب التلقائى بين كل هذه التخصصات، ويتم هذا بنعومة وســرعة تفوق فى بعض الحالات لمح البصر .

ويصدق هذا التصور على جسم كُل فرد من البلايين الذين يمثلـــون مجموع الجنس البشرى وفى الوقت نفسه فما من فرد من هذه البلايين يشـــبه الآخر شبها تاما فى كل شيء، وقد نجد عددا من الأخوة الأشـــقاء لأب وأم، وكل واحد منهم يختلف عن الآخر.. فبعضهم يرث صفات عن أمه، والبعض الآخر عن أبيه والبعض الثالث عن صفات مضموره فى الأعمام والأخـــوال والأجداد الخ... وما من واحد منهم له بصمة يد تشبه بصمة أخيـــه. فضـــلا عن الآثار الاجتماعية المكتسبة والمختلفة لكل واحد كحظـــه فـــى الـــزواج والعمل، والموقع الذى يعيش فيه والتعليم الذى ناله .

هذه هى صورة المجتمع البشرى، والقرآن الكريم الذى تنزل من لدن خالق هذا المجتمع. يعامل المجتمع تبعا لهذه الطبيعة .

وكان يجب أن تؤدى طريقة تعامله مع المجتمع البشـــرى وإشـــاراته المتكررة التى تصب فى بحيرة التعددية لجعل المجتمع الإســـلامى مجتمعـــا تعدديا بمعنى الكلمة تزدهر فيه الآراء.. وتتلاقح الأفكار ويدلى كـــل واحـــد بدلوه، ويرفع كل واحد صوته،ولكن هذا لم يتحقق إلا فـــى بعـــض جوانـــب الحياة، ولفترة محدودة مما جعل الإنسان يتساءل كيف حدث هذا، ولماذا ...

لقد كانت الفترة الذهبية القصيرة فى تاريخ الإسلام هى الفترة النبوية والخلافة الراشدة، وقد حدثت فى مجتمع ساذج بسيط هو المجتمع ما بين مكة والمدينة فلم يتطلب تعددية كبيرة، ومع هذا فإن صحيفة الموادعة التى وضعها الرسول غداة قدومه المدينة، واعترفت باليهود جنبا إلى جنب الأنصار والمهاجرين واعتبرتهم "أمة واحدة" نموذج فريد فى تقبل التعددية على قدم المساواة وداخل إطار فسيح يضم مختلف الأعراق والديانات .

كما أن موقف الرسول من "المنافقين" الذين صرح القرآن بكفرهم، وعدم اتخاذ إجراء نحوهم، بل صلاة الرسول على جثة كبيرهم عبد الله بن أبى هى صورة نادرة من السماح بوجود الأخر.. وقبول ما يعلنه رغم أنه يضمر عكس ذلك الأمر الذى يضع مبدءا من أخطر المبادئ وأهمها هو أن المحاسبة تكون على الظاهر، أما باطن الإنسان، وما يقر فى أعماقه وبين جنبيه فيجب أن لا يكون موضوعا لبحث أو محاسبة، كما يجب ملاحظة أن إشارات القرآن الخاصة بحرية الاعتقاد كانت فى أصل سماحة الإسلام تجاه الأديان الأخرى وإقراره كل ذى دين على دينه على نقيض سياسة الدول الأوربية التى كانت تفرض على اليهود والمسلمين نبذ دياناتهم والإيمان بالمسيحية حتى مشارف العصر الحديث .

ولو أستمر التقدم الحضارى للمجتمع الإسلامى، ولم يبتلى بما أوقفه، لكان من المحتمل أن تصل التعددية فى هذا المجتمع إلى مستوى قريب مما وصلت إليه التعددية فى المجتمع الأوربى لأن طبيعة التعددية تملى عليها ظهور التجليات العديدة للنفس البشرية حسنة أو سيئة، وصور الإغواء وإشباع الشهوات بمختلف الطرق، وسنرى التكييف "الشرعى" لمثل هذا الوجود فى مجتمع إسلامى طبقا لما يقرره القرآن، ولازدهرت الفنون والآداب ومشاركة المرأة فى حياة المجتمع، ولما فقد المجتمع جمالياته التى جعلته يشبه صحراء غبراء بلقع.. إن هذا التطور لم يحدث، فقد قضت عليها النظم الحاكمة الاستبدادية والتقليد الفقهى المغلق .

ويصور تطور الفقه الإسلامى هذه المأساة ففى فترة الازدهار طوال القرون الثلاثة الأولى تعددت الاجتهادات تعدداً وصل إلى حد البلبلة، وتعددت، وتناقضت الأحكام فى المدينة الواحدة وبقدر ما كان هذا يدل على درجة عالية من الحرية والخصوبة فى الفكر، بقدر ما كان يتطلب نوعاً من التنظيم، ولكن هذا تأبى على المجتمع وقتئذ. فالتجأ الفقهاء إلى إغلاق باب الاجتهاد.. وكانت تلك بداية النفق المظلم الذى سار فيه الفكر الإسلامى قرابة عشرة قرون فقد تجمد الفقه، وحبس فى قميص المنطق الصورى الأرسطى، وتجمد معه الفكر الإسلامى.. وشيئا فشيئا أصبح الفقهاء هم رجال القانون الذين يحفظون النظام القائم ويعبرون عن سياساته، وبذلك فقد المجتمع الإسلامى حريته الفكرية بعد أن فقد حريته السياسية .

والحرية هى أم التعددية فإذا لم تعد حرية فليس هناك تعددية

ومع هذا فإن المجتمع الإسلامى بحكم الحيوية الفائقة للإسلام والروح الثورية والتحررية للقرآن، لم يفقد صوراً عديدة "للتعددية" فظهر فى العصر العباسى فى بغداد ما لم يظهر فى روما من التعددية الفكرية ما بين الإلحاد (أو الزندقة كما كانوا يقولون) حتى التزمت فظهرت الطرق الصوفية وازدهرت بينما انتعشت دعوة "إخوان الصفا" الغامضة المتحررة ووجدت من الملل والنحل ما ملأ كتاب ابن حزم والشهرستانى، وما يصعب تصوره الآن، وقرأنا عن ندوات تجمع الصوفي، والملحد والمتكلم والفقيه لا يرفض أى واحد منهم الآخر، ولكن يكله إلى خالقه .

أما فى القضية الحساسة "المرأة" التى كان يمكن أن تكون أصلاً لعدد كبير من التعدديات فإن إشارات القرآن إلى تحريرها ومساواتها، وممارسات الرسول المتعاطفة مع المرأة. لم تنجح كلها فى اقتلاع "حمية الجاهلية" التى انتقلت من العهد الجاهلى حتى العصور التالية.. وكان المجتمع الجاهلى الذى

يقوم على النهب والسلب لا يعترف بالمرأة لأنها لا تحارب ولا تأتى بغنيمة وترسب هذا المعنى فى نفسية المسلمين حتى بعد أن تغير المناخ الاجتماعى فى بغداد، وقد حل هذا المجتمع مشكلة المرأة باتخاذ الإماء (الجوارى) والقيان والسماح لهن بأداء دور يكسر حدة إبعاد المرأة عن الحياة وحجبها فى البيوت بحيث سمح هذا التطور بظهور صور من المجتمع المختلط وإن لم تكن الصورة سليمة ..

* * *

فإذا كان انعدام التعددية فى المجتمعات الإسلامية إنما يعود بالدرجة الأولى إلى فقد هذه المجتمعات لحرياتها السياسية والفكرية، وليس إلى سبب أصولى فى الإسلام فإن استعادة هذه الحرية يمكن أن تحقق التعددية، وتلك هى المشكلة التى يكون على المجتمع الإسلامى الحديث أن يجابهها بقوة، ذلك أن الألفة الطويلة لعهود الانغلاق كادت تطمس الإشارات المتكررة للقرآن الكريم عن الحريات والتعدديات خاصة بعد أن قام المفسرون بتأويلها تأويلات تميل بها عن هدفها كما حدث بالنسبة لحرية الاعتقاد يدل على ذلك متابعة المفكرين الإسلاميين المحدثين لما ذهب إليه الفقهاء القدامى من تطبيق حد الردة على كل من أنكر معلوما من الدين بالضرورة، إذا رفض الاستتابة، وهو نص مناقض لكل آيات حرية الاعتقاد فى القرآن الكريم التى عرضنا لها، بل ومناقض لسلوك وعمل الرسول الذى لم يحدث أبدا أن أوقع حدا لمجرد تغيير الدين، وإنما ضم إلى ذلك مقاومة الدولة والتخلى عن الجماعة والانحياز إلى الأعداء ..

وهو ما يدل على ضرورة معالجة القضية فى صورتها التى يمكن أن تأخذها عمليا معالجة لا تخشى المصارحة بل تقوم على المجابهة ...

الفصل الثالث
تقرير تعددية الأديان

يصل القرآن إلى الغاية فى التعددية عندما يقرر – وهو الذى يختلف عن المسيحية واليهودية وبقية الأديان الأخرى – قبول وجود هذه الأديان والتعايش معها ..

وهذا الموقف الفريد – لأننا لا نعلم مثيلا له بين الديانات الأخرى – يعود إلى سببين أولهما تاريخى وثانيهما موضوعى .

أما السبب التاريخى فإنه يعود إلى النشأة التاريخية للديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام .

فكما هو معروف فقد ولد سيدنا إبراهيم فى العراق وعاش ردحا من الدهر فى "أور" "الكلدانية" ثم تنقل ما بين مصر وفلسطين حتى مات ودفن فى بئر سبع .

وكانت زوجة إبراهيم "سارة" عاقرا فدفعت بسيدة جاءت بها من مصر هى هاجر إليه ليتزوجها عسى أن تلد له ولدا. وهذا ما حدث فقد ولدت له هاجر بكر أبنائه "إسماعيل" وتملك الغيظ والغيرة سارة، ودفعت

زوجها لأن يبعد هاجر وأبنها عنها. فأخذهما إلى الحجاز وأودعهما ذلك المكان الذى سيصبح أقدس الأماكن، وتركهما. وبعد فترة أشتد العطش بها وبطفلها، وأخذت تروح وتجئ بحثا عن المياه حتى عثرت على بئر زمزم فارتوت، ولاذ بالبئر نفر من العرب، ونشأ إسماعيل معهم وتزوج منهم وأصبح رأس العرب العدنانيين الذى سيولد منهم رسول الإسلام العظيم محمد بن عبد الله .

وقد لا يفهم الإنسان الحكمة فى هذه العملية كلها، وقد يستشعر غيظا من سارة التى أصرت على إبعاد هاجر وإبراهيم الذى أطاعها، ولكنهما كانا مسيرين بإرادة الله وبعنايته الذى شاء أن يستقل هذا الفرع من أسرة إبراهيم بدين هو الإسلام.. ويشعب هو العرب .

ولنعد إلى السياق فبعد أن عاد إبراهيم إلى موطنه أوحى إليه الله تعالى أن سيرزق من سارة العجوز بابنين هما أسحق، ثم يعقوب .

ومن يعقوب الذى يطلق عليه إسرائيل جاءت الأسباط التى كونت شعب بنى إسرائيل وتكرر بالنسبة ليعقوب ما حدث بالنسبة لإبراهيم فقد وقعت المجاعة المجاعة بديارهم وأرسل يعقوب بعض أبنائه إلى مصر ليمتاروا منها وغار الأبناء من أخيهم الصغير يوسف الذى كان والده يؤثره بالحب.. فتآمروا عليه وباعوه بدورهم لأحد حكام مصر .

وظفر يوسف باحترام الحاكم عندما فسر له حلمه المشهور عن سبع بقرات عجاف تأكل سبع بقرات سمان. بأن سيحدث فى البلاد قحط يستمر سبع سنوات.. وعينه مديرا لخطة مقاومة القحط .

وعندما جاء للمرة الثانية – أخوته – عرفهم بنفسه وطلب منهم إحضار الأسرة كلها فجاءوا وأقاموا فى إحدى مناطق الشرقية بالوجه

البحرى، وأمضوا أجيالا عديدة تكاثروا فيها حتى ضـــاق بـــهم المصريـــون فاستعبدوهم وشغلوهم فى بناء المعابد (وهذا لا ينطبق على الأهرام لأنه جـاء بعد الأهرام بمئات، وربما آلاف السنين) حتى ظهر منهم موسى الذى تربـــى فى بيت فرعون ونشأ كنبيل مصرى ولكنه تبنى قضية بنى إسرائيل ودخـــل فى صراع مع فرعون وأيده الله وجعله نبيا وكتب له النصر علـــى فرعـــون بحيث خرجوا من مصر "بيت العبودية" فذهبوا إلـــى فلســطين "ليســتعبدوا" الفلسطينيين وتوالت الأجيال حتى ظهر فيهم عيسى السيد المسيح الـــذى أراد هداية خراف بنى إسرائيل الضالة فانقلبوا عليه وتوصلـــوا إلـــى محاكمتـــه، وصلبه "وما صلبوه.. ولكن شبه لهم" .

وبعد قرابة ستة قرون من ظهور المسيحية أذن الله تعـــالى بظـــهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله وهو سليل إسماعيل بن إبراهيم .

وكادت القضية تتكرر عندما أهدى المقوقس للرسول مارية المصرية القبطية، وعندما أنجبت من الرسول وولدت له إبراهيم.. ولكن الله تعالى لـــم يشأ لإبراهيم أن يعيش فمات طفلا .

وهكذا نجد أن الديانات الثلاث نشأت عن أب واحد، وهو ما يجعلنـــا نفهم كلمة الرسول عن الأنبياء أنهم "أبناء علات" أبوهم واحد وأمهاتهم شـتى، وارتبطت تاريخيا وجغرافيا بمكان وزمان متقارب قبل أن يتفرغ كـــل ديـــن ويذهب إلى قارات الأرض، وكان يفترض أن تكون العلاقة بينهم كالعلاقة ما بين الأخوة، ولكن سدنة كل دين ضاقوا بالدين الآخر.. وساد الجميع نوع من الفتور، إن لم يكن العداء.. وكانت العلاقة على أسوئها ما بين المسيحيين مـــن ناحية واليهود والمسلمين من ناحية أخرى، وكانت علـــى أخفـــها مـــا بيـــن المسلمين من ناحية والمسيحيين واليهود من ناحية أخرى، ذلك لأن الإســـلام كان عليه كآخر الأديان أن يحدد الموقف بالنسبة للأديان التى سبقته فوضـــع

مبدأ القبول لكل الأديان، وحرية أصحاب كل دين فى ممارسة دينهم دون أى تقييد، وتطبيقا لهذا المبدأ ظفر المسيحيون واليهود بالحرية الدينية الكاملة .

ويغلب أن تدق الحكمة الإلهية فى الطريقة التى ظهرت بها الأديان الثلاثة، والسياق الذى أخذته فى حين أن إنعام النظر يمكن أن يكشف فى كل حركة منها حكمة فقد شاء الله تعالى أن يظهر إبراهيم فى الجناح الأيسر فى المنطقة العربية. ويغرس دينه فيها، ثم أراد الله أن يسكن أحفاده فى مصر ليظهر موسى ويعلن اليهودية ويقود بنى إسرائيل إلى فلسطين ليظهر فيها بعد عدة قرون المسيح ويعلن المسيحية.. وبعد عدة قرون أخرى أعلن محمد بن عبد الله – سليل إسماعيل الذى أبعد إلى الحجاز – الإسلام .

ولا جدال أن فى إرادة الله تعالى وجود الأديان الثلاثة جنبا إلى جنب حكمة كبيرة فقد أراد لها أن تتحد فى الأب وتختلف فى الأم فتكون "أبناء علات" كما قال الرسول ليتحقق فيها عنصر من الوحدة وعنصر أخر من التميز كما لم يشأ أن ينفرد واحد منها بالبشرية، فهذا يتعارض مع التعددية التى هى فى طبيعة المجتمع البشرى، وما لا يكون هناك مفر منه، وعادة ما يفضل الأب أن يكون لأبنه الواحد أخ يلاعبه ويكسر فيه حدة الاحتكار ويحقق كل ما فى "التجمع" من مزايا سواء كانت فى العاطفة أو فى الإضافة، التى يضعها الثانى إلى الأول والثالث إلى الثانى .

فوجود أديان ثلاثة التى هى الحد الأدنى للجمع، وأتصاف كل منها بمعالم مميزة يمثل تعددية "الأسرة" التى تعرف أبناءها قواعد التعامل والأخذ والعطاء وما يكون لها وما يكون لغيرها. وأداب الائتلاف والاختلاف وأن يكمل ما لدى الواحد ما ينقص الآخر. فاليهودية بتوحيدها الصلد، والمسيحية بمحبتها والإسلام بعدله. كلها تمثل التكامل المطلوب فى عالم القيم .

إن التكييف الإسلامى لهذه الدرجة من تعدد الديانات على أساس التعايش والتسامح والتكامل لهو أفضل الخيارات فهو أفضل من وجود دين

واحد فحسب لن يتجاوب مع الطبيعة البشرية، ويحرم من مزايـــا المنافســة ووشائج القربى فى وقت واحد. وهو أفضل من وجود عشرات الأديان الـذى يؤدى إلى التفتت.وقيام العلاقات التى توجدها التعددية على أساس الســماحة تمثل العطاء والتكامل وهو الوضع الأصولى لأنها كلها تبتهل إلى إله واحــد وتنادى بقيم الحب والخير والعدل وما الذى يدفع دينا منها لأن يتكاثر علــى حساب الآخر وفى كل دين مئات الملايين ولكل ديـــن نكهتــه وضرورتــه وأضافته إلى الحضارة "لكم دينكم ولى دين" .

إن الدين هو البيت الكبير الذى يضم على الأقل وما نحــن بصـــدده، الأديان الأخوة "اليهودية والمسيحية والإسلام" الثلاثة، وأن يكون لكل واحـــد منها دور فيه يمثل قدرا من استقلال داخل الإطار الواحد، وأن يحـــب كـل واحد نفسه وأبناءه لا يعنى بالضرورة أن يكـــره أخويــه وأبناءهمـــا أو ألا يخصهم بجانب من الحب لأن الحب يتسع للجميع ويسعد به الجميع .

ووجود أخوة ثلاث فى البيت أفضل من أن يستأثر واحـــد فحســب بالبيت، لأنه وإن كان البيت سيصبح خالصا له، فسيكون عليه مسئولية القيــام بنفقاته وأعبائه ثم يمكن أن يقع فى مزالق "المنفرد" الـــذى تتملكــه الأثــرة والأنانية، ولا يجد شريكا يكبح جماحه ويتحمل معه الخسارة. أما الربح فـــإن استخدام العقل واستلهام القلب يضاعفه ويجعله أكثر مما كان يمكـــن للفــرد وحده أن يصل إليه .

* * *

هذا عن السبب التاريخى ..

أما السبب الموضوعى لتقرير الإسلام تعددية الأديان، فإنه يعود إلــى تكييف الإسلام لفكرة "الله" باعتباره خالق الكون بأسره، والوجود كلـــه. فــى حين أنه فى الفلسفة كان مجرد "فرض لحل سلسلة الخلق" دون أن يتضمـــن

هذا الفرض بالضرورة خصائص الحياة والفعالية والمقدرة الخ.. كما انه فـي الأديان الأخرى كان إلها محليا، للمصريين أو البابليين أو بنى إسرائيل، بينما ألقت عليه الوثنية باوضار ولوثات تصوراتها الفجة والبدائيـة، إن "الله" فـي الإسلام هو خالق الكون بأسره وجابل البشرية، وأصل القيم العليا من حكمـة وقدرة وعدل وخير وسلام الخ.. وواضع النظم التى يسير عليها الكون كمـا يسير عليها المجتمع البشرى، وهو الذى أنزل الديانات كلها من لدن آدم حتـى محمد، بما فى ذلك رسل وديانات لم يقصص علينا القرآن أنباءهم. فمـا دام الأمر كذلك فلا يفترض أن يكون فى تعددية الأديان تناقض أو تنـافر لأنـه تعالى هو الذى أنزلها ولأنه يرسل الرسل وينزل الديانـات تبعـا لحاجـات البشرية المتفاوتة والمتعددة حسب الأزمان والعصور والأجناس والملابسـات التى تتحكم فى كل جنس وشعب. وهذه الأديان كلها تؤثر، وتتأثر بأوضـاع مجتمعها، ولا يستشعر القرآن حرجا أو حساسية فى ذلك لأن كل شـئ مـن خلق الله.. فلن يكن فرار من قدر الله إلا إلى قدر الله، وعندما سئل الرسـول "ارأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة تقيها هل ترد من قدر الله فقـال هى من قدر الله" ولأن الله تعالى وضع أصولا ومبادئ تحكم المجتمع. وفـي الوقت الذى لا يمكن أن يغيب مثقال ذرة فى هذا الكون اللانهائى عـن علـم الله. فإن الإنسان ليعطى نفسه أهمية قد لا تكون له إذا تصور أن الله تعـالى ليس لديه عمل إلا متابعته، فأين هو من ملك الله ..

من هنا فإن منطق الخطأ والصواب لا يمكن أن يطبق على الأديـان. فكل دين يمثل إحدى احتياجات البشرية. وأختلافـها يعـود إلـى إختـلاف الاحتياجات والملابسات والعصور والبيئات .

وليس هناك حساسية فى القول بأن الأديان، وأن كانت منزلة مـن الله فإنها تصبح "ظاهرة اجتماعية" عندما يتعامل الناس معها. الأمر الذى أشـار إليه القرآن عندما تحدث عن غلبة الأهواء التى تحرف الكلـم عـن حقيقتـه

وآثار مر الغداة وكر العشى وتوالى القرون وكيف تقسوا القلوب عندما يطول عليها الأمد وتتجمد المشاعر والعواطف أو تتقولب الخ..

يجب أذن التفريق بين ما جاء فى القرآن الكريم الذى هو التعبير الحقيقى عن الإسلام. وبين ما ينتهى إليه رجال الدين فى كل عصر وأوان من فهم لحقيقة الرسالات الإلهية لأن هذا الفهم لابد وأن يتأثر برواسب فكر هذه المجتمعات. وقصور الإدراك البشرى وغلبة المصلحة والذاتية على نفوس الذين يتحدثون باسم الأديان ويرون أنفسهم حراسها وحفظتها وما يسلك إليهم مع احتكارهم لتمثيل الدين من انحرافات .

وهذه الظواهر توجد فى كل المجتمعات ويتأثر بها رجال الدين من مسلمين أو مسيحيين أو بوذيين الخ.. وهى السر فيما يصدره رجال الدين من أحكام ينسبونها إلى الدين .

وموقف الإسلام الذى جلاه القرآن الكريم واضح دون خفاء، وقد كرره القرآن مرارا وتكرارا فى عديد من الآيات. أن الله تعالى أراد هذه التعددية الدينية، بما تتضمنه من اختلافات لا مناص عنها بحكم ما أرسله الله من أسس يسير عليها المجتمع. ولما كان الاختلاف ليس فحسب واردا، بل هو مطلوب، فإن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيما كانوا فيه يختلفون يوم القيامة .

وبهذا حسم القرآن شأفة الخلاف، وحرم على كل فريق أن يدعى الأفضلية وان يرى أن الآخرين ليسوا على شئ، ولأن يدعى الجنة لنفسه والنار للمخالفين فهذا ليس من حقه، وفيه أفتيات وتألى على حق الله تعالى، وأن هذا كله "أمانى" يصدر عنها كل فريق من منطلق ذاتى والأمر ليس بأمانى المسلمين أو أهل الكتاب أو غيرهم ..

وحكمة الله تعالى فى هذا كله أن الأديان رغم اختلافها تنتهى كلها إلى حقيقة واحدة هى الألوهية فالاختلافات لا تنال الجوهر – كما يبدو لبعض الذين يحول استغراقهم فى أنفسهم دون فهم الآخرين. فالملايين فى أوربا وأمريكا الذين يقولون "أبانا الذى فى السماء" لا يفهمون منه إلا ما يفهمه المسلمون من حديث "الناس عيال الله" ومن المؤكد أنهم لا يفهمون، ولا يعنون بالأقانيم الثلاثة وعلاقة كل واحد بالآخر، أما التعميد فى المياه، أو تناول القربان فليس إلا طقوس وتقاليد لا تضر، وقد تفيد، وفى هذه الدول التى لا تؤمن بالإسلام يعمل الناس بجد وإخلاص ولديهم الصدق فى القول والإتقان فى الأداء والوفاء بالعهود والخلق الحسن، كما يعد كذب الساسة فيما يدلون به من وقائع أو بيانات أمام القضاء أو مؤسسات الدولة جريمة كبرى قد لا يكفر عنها إلا بالاستقالة كما حدث بالنسبة لنيكسون الذى أتهم بالتجسس على خصومه السياسيين وللرئيس كلينتون بالنسبة لعلاقته بإحدى موظفات البيت الأبيض، وقد تعرض للوم والتقريع ودفع غرامة كبيرة والحرمان من ممارسة المحاماة لمدة خمس سنوات فى حين أن معظم قادة الدول الإسلامية ليس لهم من كلام إلا الكذب والتزييف وليس لهم من عمل إلا الاستبداد والتحكم، وبهذا فإن المجتمعات الأوربية قد تكون أقرب إلى الله، وإلى المثل والقيم الإسلامية، من عديد من المجتمعات التى تدعى الإسلام .

أذكر أنى كنت فى شتاء عام ١٩٤٨ فى معتقل الطور مع الإخوان المسلمين الذين اعتقلوا بعد الحل الأول للإخوان. وكان المعتقل الذى غرس وسط الصحراء القاحلة يبدو ليلا متلألئ الأضواء بفضل المصابيح الكهربائية التى أقامتها إدارة المعتقل لفرض الحراسة وبفضل ما توصل إليه الإخوان خاصة الكهربائيين منهم من استخدامات للطاقة الكهربائية فى تسخين المياه للاستحمام والغسل والطهى الخ.. وكنت أقول للإخوان إلا تظنون أن الله تعالى سيدخل "أديسن" الجنة، بعد أن أتاح للبشرية كل هذه الأنوار فيردون بقوة "كلا أنه لم يؤمن بالله ولا الرسول" وكأنهم تصوروا أن الإسلام ظهر فى أمريكا وأن الرسول دعا أديسن والأمريكيين إلى الإسلام فرفضوا .

وكنت أرد عليهم – صدق الله ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الأنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ .

وقد آن للدعاة الإسلاميين أن يعلموا أنه ليس مطلوبا منهم، أن يكسبوا للإسلام مؤمنين بأديان أخرى، وليس من حقهم أن يحكموا على الآخرين بالنار كأن مفاتيح الجنة والنار فى أيديهم. أن هذا منتهى الأفتيات والتألى بل الوقاح، فى حق الله تعالى. أن كل ما طلبه القرآن – بعد أن قال ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم[١] ﴾. هو أن يكونوا "شهداء على الناس" ويقتضى هذا أن يعرفوهم على الإسلام ثم يتركوهم لأنفسهم لأن تغيير الدين ليس مسألة إيمان قلبى ونظرى فحسب، ولكنه يتطلب تعقيدات اجتماعية وترتيبات فى الميراث وغيره، ولأن الهداية من الله وليست من الرسول ..

ولكن يبدو أن كل هذا لم يفهم من المسلمين المعاصرين، ولم تؤثر فى أحكامهم وتصوراتهم أو فى النزعة الدفينة فى نفوس بعضهم، فقد قرأت عددا خاصا من مجلة التوحيد عن التعددية حاول أن يطرح هذه القضية بكل إخلاص وعمق ورغبة فى التوصل إلى الحقيقة، ومع هذا فإن التيار الفكرى الكاسح الذى يسيطر على الفكر الدينى جعل محور المعالجة يدور حول أمرين :

الأول: هل يمكن قبول تعدد الأديان، وهلا يعنى هذا خطأ البعض وصواب الآخر ..

والثانى: ما هو مصير الذين لا يؤمنون بالإسلام يوم القيامة وهل سيكون مصيرهم إلى النار [٢] ..

---

(١) أنظر شرحها فيما سيلى ..

(٢) مجلة التوحيد السنة التاسعة عشر خريف ١٤٢١ – ٢٠٠٠ طهران – قم – أنظر ص ١٥ – والعدد كله عن التعددية .

ثم لا يقفون عند هذا، ولكنهم يقطعون بانهم فى الجنة وأن مخالفيهم فى النار[1] .

وأى جرأة على الله مثل هذه الجرأة وهل يملكون هم مفاتيح النار أو يقدرون على زج الناس فيها.. وعلى أى أساس بنوا هذه النتيجة الفاسدة وأين هم من رحمة الله التى لا تحد، والتى تثيب بسبعمائة ضعف ولا تعد رحمة الأم بأبنائها إلا جزء من مائة جزء هى رحمة الله.. وفى النهاية قد لا يزج فى النار إلا بالمارد المتمرد، كما جاء فى أثر كريم. سنشير إليه فى فقرة تالية ..

وقد عالج هذا الموضوع معالجة وافية فقيه أزهرى مجدد لم يظفر بالشهرة التى كان يستحقها هو الشيخ عبد المتعال الصعيدى رحمه الله فى كتابه "حرية الفكر فى الإسلام" الذى ظهر فى أربعينات القرن العشرين، وسنعرض هنا للفقرة التى كتبها على طولها لتتضح الصورة .

فتحت العنوان الفرعى "رأى الجاحظ والعنبرى فى عذر غير المعاند فى الحق" قال الشيخ عبد المتعال الصعيدى ..

"وهناك فريق آخر على رأسه الجاحظ والعنبرى من أئمة المعتزلة يرى أنه لا إثم على المجتهد مطلقا، وإنما الإثم على المعاند فقط، وهو الذى يعرف الحق ولا يؤمن به عنادا واستكبارا، **فالمجتهد المخطئ عند هذا الفريق غير آثم، ولو أداه اجتهاده إلى الكفر الصريح، لأن تكليفه عندهم بنقيض اجتهاده تكليف بما لا يطاق، والتكليف بما لا يطاق ممتنع شرعا وعقلا، وقد أجاب الجمهور عن هذا بأن التكليف بما لا يطاق ممكن غير ممتنع عقلا ولا عادة، فلا يكون من المستحيل فى شئ، وفى هذا الجواب**

---

(١) فإذا قيل أن الله تعالى قد قضى بالجحيم لفئات من الناس قلنا إنه ليس لنا أن نعين هذه الفئات أو نزعم أن أشخاصا معينين يدخلون فيها .

من الضعف ما هو ظاهر، لأن الله تعالى يقـــول: ﴿لا يكلـــف الله نفســا إلا وسعها﴾. {٢٨٦ البقرة} فهو ممتنع شرعا وعقلا .

ولا شك أن مذهب هذا الفريق ظاهر في نفـــي الإثـــم مطلقـــا عـــن المجتهد المخطئ بمقتضى دليلهم السابق، ولكن بعض المتكلفين رأى متطفـــلا عليه أن يقيده ببعض المسائل الخلافية بين الفرق الإسلامية، مثل نفي رؤيـــة الباري تعالى، ومثل القول بخلق القرآن، فلا يدخل فيه ما هـــو مـــن الكفـــر الصريح، ولكن هذا خلاف مذهب هذا الفريق كما هو ظاهر .

وقد استدل الجمهور لمذهبهم بإجماع المسلمين قبل ظهور هذا الفريق على وجوب قتال الكفار مطلقا، وعلى أنهم من أهل النار مطلقا، وهـــذا مـــن غير فرق بين معاند منهم وغير معاند، ولو كانوا غير آثمين لما ساغ قتالـــهم، ولما كانوا من أهل النار أيضا .

والشق الأول من دليل الجمهور مبني على مذهبهم في وجوب قتـــال الكفار على كفرهم، وقد ثبت في عصرنا بطلان هذا المذهب، لقولـــه تعـــالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ {٢٥٦ البقرة} وكل آيات القتال في القرآن ظاهر فـــي أن **قتالنا للكفار مسبوق بقتالهم لنا، فنحن نقاتلهم على قتالـــهم لنـــا، لا علـــى كفرهم، وقد بينت هذا في بعض كتبي، وبينه السيد محمد رشيد رضـــا فـــي تفسير الآية السابقة من سورة البقرة، ولا داعـــي إلـــى ذكـــره الآن هنـــا، وسيأتي في موضوعه من هذا الكتاب .**

والشق الثاني من دليل الجمهور فيه مصادرة علـــى المطلـــوب، لأن أصل النزاع بين الجمهور وهذا الفريق في كون الكفار غير المعاندين آثميـــن ومن أهل النار، أو غير آثمين ولا من أهل النار، ودعوى الإجماع في ذلـــك لا قيمة لها، لأن الإجماع لابد له من دليل يستند عليه، والدليل قائم عند هـــذا

الفريق على أن الكفار غير المعاندين غير آثمين، وهذا إلى إنكـــار بعضــهم للاحتجاج به .

وقد ذهب الشيخ محمود شلتوت فى كتابه - الإسلام عقيدة وشريعة - إلى مثل هذا، فذكر أن من لم يؤمن بالله ولا برسله ولا بنحو ذلك لا تجـــرى عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم بعض، وليــس معنى هذا أن من لم يؤمن بشئ من ذلك يكون كافراً عند الله يخلد فى النـــار، وإنما معناه أنه لا تجرى عليه فى الدنيا أحكام الإسلام، فلا يطالب بما فرضه الله على المسلمين من العبادات، ولا يمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمـــر وأكل الخنزير والاتجار بهما، ولا يغسله المسلمون إذا مات ولا يرثه قريبـــه المسلم فى ماله، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات .

أما الحكم بكفره عند الله فهو يتوقف على أن يكـــون إنكـــاره لتلـــك العقائد أو لشئ منها بعد أن بلغته الدعوة على وجهها الصحيح، واقتنـــع بـــها فيما بينه وبين نفسه، ولكنه أبى أن يقنعها ويشهد بها عنـــاداً واســـتكباراً، أو طمعاً فى مال زائل أو جاه زائف، أو خوفا من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه تلـــك العقائد، أو بلغته بصورة منفرة، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظـــر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظل ينظر ويفكر طلبـــا للحـــق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فإنه لا يكون كافراً يستحق الخلود فى النـــار عند الله .

ثم قال: ومن هنا كانت الشعوب النائية التى لم تصـــل إليـــها عقيـــدة الإسلام، أو وصلت إليها بصورة سيئة منفرة، أو لـــم يفقـــهوا حجتـــه مـــع اجتهادهم فى بحثها - بمنجاة من العقاب الأخروى للكافرين، ولا يطلق عليهم أسم الكفر. والشرك الذى جاء فى القرآن أن الله لا يغفره هو الشرك الناشـــئ عن العناد والاستكبار، الذى قال الله فى أصحابه ﴿وجحدوا بـــها واســـتيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ {١٤ النمل} .

وهذا صريح فى اختيار الشيخ محمود شلتوت لمذهب هذا الفريق، لولا أنه خلط بين مذهب هذا الفريق ومذهب الجمهور فيما رتبه على ما ذهب إليه من النتيجة المقصودة، وهو أن من كان من الكفار من أهل النظر وظل ينظر ويفكر طلبا للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فإنه لا يكون كافرا يستحق الخلود فى النار عند الله .

فإن هذا ليس محل الخلاف بين مذهب الجمهور ومذهب هذا الفريق فى الكافر غير المعاند، بل هو محل اتفاق بين الجمهور وهذا الفريق، لأنه مات طالبا للحق ولم يصل إلى رأى قاطع، وليس هذا هو الذى يخالف فيه هذا الفريق مذهب الجمهور، وإنما الذى يخالف فيه الجمهور هو من نظر واجتهد فأداه اجتهاده فى حياته إلى الكفر الصريح، وهذا هو الذى لم يشر الشيخ محمود شلتوت إليه، مع أنه فيما نقلناه عنه يرى رأى هذا الفريق الذى يفرق بين الكافر المعاند وغير المعاند .

وللبحث بعد هذا كله مجال فيمن هو المعاند؟ فهل هو الذى يعرف الحق ولا يؤمن به ولو أقتصر على نفسه، فلم يحاول منع غيره من الإيمان بوسيلة قهرية أو جدلية، أو الذى لا يقتصر على نفسه بل يحاول ذلك مع غيره ؟ ومما يفيد فى هذا البحث خلاف الجمهور فى أبى طالب عم النبى ﷺ فقد ذهب بعضهم إلى أنه مات على شركه، ثم ذهب إلى أن حمايته للنبى من المشركين تنفعه فى أخراه، وتنجيه من عذاب النار إلى ما لا ينكر من العذاب، لأنه يبلغ فى خفته إلى أبعد حد .

ولا يفوتنى بعد هذا أن أضيف إلى نقدى السابق للشيخ شلتوت نقدا آخر لإخفائه نسبة ذلك الرأى إلى صاحبيه القديمين - الجاحظ والعنبرى - وهما من أعلامنا الأقدمين، ونسبته إليهما تجعل له قيمة أكثر من نسبته إلى الشيخ شلتوت، وما كان هذا ليخفى عليه وهو رأى مشهور درسه وهو طالب

فى كتاب مشهور من كتب علم أصول الفقه. وإن كنا على عهد الطلب لم ندرك قيمة هذا الرأى فى عصرنا، لما كان يحيط بنا من الجمود الدينى والفكرى، فمر علينا فى ذلك الكتاب كما مر غيره من مسائل علم أصول الفقه، ولم ندرك مدى ما وصلت به سماحة الإسلام إلى حد لا يوجد فى غيره من الأديان، ولم ندرك أن الإسلام يصل به إلى أن يكون أسمح دين لبنى الإنسان" انتهى كلام الشيخ عبد المتعال الصعيدى .

وما يمكنا إضافته – على طريقتنا فى تقديم الاستشهاد بالقرآن واستخلاص الأحكام منه، إن نقول أن القرآن يتضمن العديد من الآيات التى تؤيد حرية العقيدة وتتقبل الأديان وتدع الاختلاف فيها إلى الله .

من هـذه الآيات ...

- ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . {٦٢ البقرة}

- ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ . {١١٣ البقرة}

- ﴿قل آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ . {٨٤ آل عمران}

- ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة الناس أجمعين﴾ . {١١٨- ١١٩ هود}

- ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله. وإنا وإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعلمون﴾ . {٢٤ - ٢٥ سبأ}

- ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين﴾ .

{١ - ٦ الكافرون}

وتحدث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى حديثا منصفا، يمثل الحياد والنزاهة التامة مما كان يمكن أن يكون درسا فى الموضوعية والأنصاف، ففى الوقت الذى ندد فيه بتعصب وإصرار اليهود، فإنه أعترف بما لدى البعض منهم من فضائل فقال ..

- ﴿ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما زلت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ . {٧٥ آل عمران}

- ﴿ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ . {١١٣ – ١١٥ آل عمران}

- ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم. وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ . {١٩٩ آل عمران}

- ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين

ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ . {٨٣ المائدة}

واستغرب القرآن أن يدعوا اليهود الرسول ليحكم بينهم فقال :

- ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ . {٤٣ المائدة}

وتحدث عن الإنجيل ..

- ﴿.. فيه هدى ونور ومصداقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ . {٤٦ المائدة}

- ﴿.. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ . {٤٧ المائدة}

وكان توجيه القرآن للحكم على الآخرين أولهم، أن يترك ذلك لله. وأنها أمم قد خلت لها ما كسبت "ولا تسألون عما كانوا يفعلون. وأن الله أعلم بمن يضل عن سبيله" ...

وقال القرآن بصريح العبارة ..

- ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهتديتم﴾ [(١)]

{١٠٥ المائدة}

- ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ . {١٣٤ البقرة}

---

(١) لقد ألتبس معنى هذه الآية على بعض الصحابة وظنوا أنها تنسخ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى بين لهم الرسول أنها عن النصارى واليهود، ويبدو أن هذا التفسير لم يصل إلى جميع الصحابة فوجد فى عهد أبى بكر مَن يقع فى اللبس حتى بينها لهم (أنظر مسند الإمام أحمد بن حنبل) .. (الفتح الربانى) ج١٨ ص ١٣٤ .

- ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا، ولا تسئل عما يعلمون﴾ . {٢٥ سبأ}
- ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن أهتدى ﴾..

{٣٠ النجم}

- ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ .

{٧ القلم}

ونحن لا نعلم على وجه القطع هل أرسل الله تعالى إلى أهل الصين والهند واليابان رسولا أم لا، ولكننا نعلم يقينا أن الله تعالى قال ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ {١٥ الإسراء}، ومن ثم فإن من الخطأ الحكم بأن اتباع بوذا وكونفوشيوس وهم – أضعاف المسلمين والمسيحيين واليهود – فى النار[١] .

ولما كانت السنة مبينة للقرآن ومطبقة لتوجيهاته فإن الرسول ما أن وصل المدينة حتى وضع وثيقة وحد فيها بين كل من يسكن المدينة وأعتبرهم "أمة دون الناس" "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الآثم الخ..[٢]

وهناك أثر له دلالة عميقة هو ما جاء فى مشكاة المصابيح، مرويا عن عبد الله بن عمر قال كنا نسير مع النبى ﷺ فى بعض غزواته، فمر بقوم فقال "من القوم" قالوا نحن المسلمون، وامرأة تحصب (أى توقد) بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت به فأتت النبى ﷺ فقالت "أنت رسول الله؟" قال نعم قالت "بأبى أنت وأمى أليس الله أرحم الراحمين" قال "بلى" قالت

---

(١) حقا إن الله تعالى قال "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" {٢٤ فاطر} ولم يقل رسول..فإذا كان بوذا وكونفوشيوس ينطبق عليهم وصف نذير فإنهم يكونون حجة على أقوامهم خاصة عندما تتفق القيم التى يدعون إليها مع القيم الإسلامية .

(٢) تاريخ السيرة النبوية لأبن هشام ص ٢٤٩ ج٢ .

"إن الأم لا تلقى ولدها فى النار" فأكب رسول الله ﷺ يبكى ثم رفع رأسه إليها فقال "إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله وأبى أن يقول لا إله إلا الله" رواه ابن ماجة [1] .

فهل هناك تعددية دينية دون حساسية مثل هذه.. ولماذا لا يقبل المسلمون اليوم ما قبله الرسول نفسه عندما دخل المدينة، ولا يذهبون إلى ما ذهب إليه مما هو أقرب إلى رحمة الله ؟ ..

* * *

ومنذ أن كتب الرسول وثيقة المدينة، وقال إن الأنبياء أخوة علات وأن الأديان هى "البيت الكبير" الجميل لولا ثغرة فيه، جاء الإسلام ليسدها، ومنذ أن قال "نحن أولى بموسى منهم" وقد نزل حبل صُرى من الرسول إلى أفراد من المسلمين آمنوا بتعددية الأديان وأخوة الأنبياء، **ولعل أبرزهم هو ابن عربى فى أبياته المشهورة :**

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنىّ توجهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

ومن ابن عربى أنتقل الحبل إلى ابن الفارض الذى قال فى تائية السلوك :

وإن نار بالقرآن محراب مسجد ... فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وإن عبد النار المجوس وما انطفت ... كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة
فما قصدوا غيرى وإن كان قصدهم ... سواى وإن لم تكن أفعالهم بالسديدة

---

(١) مشكاة المصابيح – المكتب الإسلامى – بيروت ج ٢ ص ٧٣٥ .

وظل هذا الحبل كامنا حتى بعثته يقظة الفكر الإسلامى فى العصـــر الحديث، فأعاد شوقى الفكرة فى ثوب قشيب :

رب شقت العبــاد أزمان لا	كتب بها، يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيـقة الزهـراء
فــإذا لقبـــــوا آلها قويا	فله بالقــوى إليــك انتهاء
وإذا آثــروا جميــلا بتنزيه	فإن الجمال منــك حبـــاء
وإذا انشأوا التــماثيل غــرا	فأليــك الرمـــوز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربابا	فالمراد الجـــلالة الشماء
وإذا يعبــد الملوك فإن الملك	فضل تحبـــو به من تشاء
وإذا تعبد البحار مع الأسماك	والعاصفات والأنـــــواء
وسباع السماء والأرض والأرحــــــــــــام والأمهات والآباء	
لعلاك المذكـــرات عبــيد	خضــع والمؤنــثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر شـــــــف عنه الحجاب فهــو ضياء	

وقد لا تثير هذه الأبيات دهشة لشــفافية روح الصوفــى والشــاعر، ولكن الذى يثير الدهشة أن يجدها بألفاظها تقريبا لدى فقيه يمثل الفقه الشـيعى وهو أكبر وأشهر آيات الله فيه إلا وهو آية الله العظمى الإمام الخمينى الــذى روى عنه ..

"على بــوابــة الخـــان
والمعبد والمسجد والدير
وقعت منهارا فى سجود
كأنك ترمقنى من هناك "[1] .

---

(١) أنظر عدد مجلة التوحيد (طهران – قم) الخاص بالتعددية فى الإسلام (مرجع سـابق) ص ٨٧ .

الفصل الرابع

الحكمة
أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام
يقرر الانفتاح والتعددية

يعجب الإنسان كيف فات على الأئمة الأعلام أن يجعلوا من الحكمة أصلا من أصول الإسلام ومصدرا من مصادر الفقه. بعد أن ذكر القرآن الكريم الحكمة مرارا وتكرارا، وقرنها بالكتاب .

أغلب الظن أنهم عزفوا عن الاعتراف بأصل ومصدر مفتوح غير محدد أو منضبط، يسمح بالانفتاح والتعددية، وهى صفات يضيق بها الفقهاء عادة، لأنها تفتح عليهم بابا لا يمكنهم التحكم فيه .

وقد ذكر القرآن الكريم الحكمة فى آيات عديدة منسوبة إلى الرسول ومقترنة بالكتاب مثل :

- ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ . {١٢٩ البقرة}
- ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ . {١٥١ البقرة}
- ﴿واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ . {٢٣ البقرة}

- ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة. إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ . {٣٤ الأحزاب}

- ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ .

{٢ الجمعة}

وكان إيراد القرآن للحكمة بهذه الصفة مما دفع بالشافعى لأن يذهب إلى أن الحكمة هى السُنة، لأنه ليس للآيات من تأويل إلا هذا، وهو أمر كان يمكن قبوله لولا أن القرآن الكريم استخدم كلمة الحكمة فى آيات أخرى كثيرة بمعنى ينفى أن يكون المقصود بها السُنة. فقد آتى الله داود الحكمة .

- ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه ما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو الفضل على العالمين﴾ . {٢٥١ البقرة}

- ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ . {٢٠ ص}

كما أتاها "الحكمة" لقمان :

- ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله. ومن يشكر الله فإنما يشكر نفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد﴾ . {١٢ لقمان}

كما أتاها عيسى :

- ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ . {٤٨ آل عمران}

- ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون﴾ . {٦٢ الزخرف}

بل أتاها النبيين :

- ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثــم جــاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم علـــى ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وإنا معكم من الشاهدين﴾ .

{٨١ آل عمران}

كما تكلم عن الحكمة بصفة مجرد :

- ﴿يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خـــيرا كثـــيرا، وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ . {٢٦٩ البقرة}
- ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ . {١٢٥ النحل}
- ﴿حكمة بالغة، وما تغنى النذر﴾ . {٥ القمر}

* * *

إزاء هذه الآيات التى تجعل الحكمة جزءا من رسالة الرسل وشــويكة للكتاب، يكون علينا أن نرد على سؤال ذى شقين: الشق الأول هو ماذا يعنيــه القرآن بتعبير "الحكمة" ؟، والثانى هو لماذا ذكر الحكمة جنبـــا إلـــى جنـــب الكتاب ولم يقتصر على الكتاب وحده ..

لعل أقرب تعيين لمعنى الحكمة فى القرآن هو العقل الخـــير والقيـــم العليا، والعلم الهادى الذى يستبعد الخرافة ويحول دون أن يضل المؤمنون ..

وقد يلقى بضوء على هذا أن الله تعالى وصف نفسه فى آيات كثـــيرة بأنه "حكيم" أو عزيز، وفى مواضع قليلة " خبيرا " .

كما قد يعنينا أن نعلم أن "الحكم" وليس هو ببعيد فى الاشتقاق اللغوى من كلمة "حكمة" يراد به "القضاء" أو سياسة أمور الناس، وهى كلها تحتـــاج أول ما تحتاج إلى الفطنة والكياسة ومعرفة طبائع الأشياء وأصول الشـــريعة.

والسنن التى يسير عليها المجتمع.. وهى فى إجمالها لا تخرج عما أشرنا إليه من المعرفة، والعلم والخبرة .

يعزز هذا أيضا النصوص المتواترة والمتعددة فى القرآن عن الحث على التفكير وإعمال العقول والتدبر فيما خلق الله وأوجده من آيات وسنن والتعرف على آثار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون الخ.. وأدل على هذا ما جاءت به الآية ٣٧ من سورة الرعد ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم، مالك من الله من ولى ولا واق﴾. فنجد هنا الجمع ما بين القرآن والحكم والعلم فى سياق واحد

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن الحكمة ترادف كلمة "الفلسفة" وأن "الفيلسوف" إنما هو "محب الحكمة" وقد فهم ابن رشد الحكمة التى ذكرها القرآن بمعنى الفلسفة .

وجاء فى مقال لأحد الباحثين عن معنى الحكمة [١] ..

إن معانى الحكمة التى حددها اللغويون والمفسرون الإصابة فى القول والفعل، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، أو هى العقل، والعلم والفهم، والمصلحة، والموعظة، والفلسفة، أو المعرفة بالدين والفهم فيه، والنبوة، والفقه، أو هى بحسب الطبرسى فى كتابه "مجمع البيان فى تفسير القرآن" العلم الذى تعظم منفعته وتجل فائدته، وإنما قيل للعلم حكمة لأنه يمتنع به عن القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن والزجر عن القبيح .

ومهما قيل أو يقال فإن الحكمة لا تخرج أبدا عن معنى السداد والصواب، ووضع الشىء فى موضعه قولا وعملا فالحكيم هو الذى يحكم

(١) أنظر مقالا للدكتور إبراهيم العانى مدير الدراسات والبحوث – الجامعة الإسلامية (لندن) فى جريدة الحياة بعنوان ما بين الحكمة والشريعة: الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له. (الحياة ٢٠٠١/١/٦) .

الشيء، ويأتي به على مقتضى العقل الواقع لا بحسب الميول والرغبات ولا يستعجله قبل أوانه أو يمسك عنه في زمانه أو ينحرف به عن حدوده وقيوده كما يذكر محمد جواد مغنية في كتابه "التفسير الكاشف" .

والتعريفات التي قدمها فلاسفة الإسلام للحكمة لا تختلف في جوهرها عما سبق ذكره، فهي عند الكندي "علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان، لأن غرض الفيلسوف في عمله إصابة الحق، وفي عمله العمل بالحق" (راجع رسائل الكندي الفلسفية)، والأمر نفسه نجده عند الفارابي وابن سينا .

أما ابن رشد فلعله خير من فصَّل العلاقة بين الحكمة والشريعة، وأثبت بما لا يقبل الشك أن الحكمة واجبة شرعاً وعقلاً. فهو يرى ابتداء في كتابه "فصل المقال" أن الحكمة أو الفلسفة لو تعمقنا معناها فهي ليست شيئاً أكثر من "النظر في الموجودات من حيث دلالتها على الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم" وهذا توجيه واضح إلى أن غاية الفلسفة في النهاية الوصول إلى حقيقة وجود خالق لهذا الكون، ولا أدري هل توجد للدين عموماً، وللإسلام خصوصاً، غاية أجل وأسمى من ذلك " أ هـ .

نقول إننا وإن كنا نتفهم تفسير ابن رشد للحكمة فإننا نؤثر التعريف العام – أي العقل والعلم والفهم وإدراك روح الإسلام ومقاصده وقيمه. لأن الفلسفة قد تثير معنى اصطلاحيا يحصر الحكمة في متاهات علم الكلام ويركز الاهتمام على ذات الله تعالى – كما عند المعتزلة – وكان أحرى بهم أن يستخدموا الحكمة فيما يحقق الخير للمجتمع والناس وما يصلح الأوضاع الاقتصادية والسياسية وينقلها إلى عالم الحياة الدنيا الذى تكون مفيدة وفعالة فيه، وليس إلى عالم الغيب وذات الله تعالى فضلاً عن أننا نهينا عن تقصيه

وعمليا فإن اعتبار الحكمة هى الفلسفة وعكوف الفقهاء عليها أدى إلى إفساد الفلسفة، وإفساد الدين معا .

أن هذا التفسير لمعنى كلمة "الحكمة" التى ترددت فى القرآن الكريم كأصل من أصول رسالة الأنبياء يعيننا فى الرد على الشق الثانى من السؤال، وهو **لماذا ذكر القرآن الحكمة جنبا إلى جنب القرآن. ولم يقتصر على الكتاب وحده ؟** الرد أن الكتب السماوية سواء كانت قرآنا أو إنجيلا أو توراة هى بالدرجة الأولى كتب هداية، وقد تضمنت أصول وقواعد ومبادئ هذه الهداية، ولكنها لم تتضمن تفاصيل وجزئيات ذلك. كما لم تتناول جوانب أخرى عديدة تزهر بها الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد، وفى الوقت نفسه فلا يمكن تجاهلها أو إغفالها، فهناك الآداب من شعر أو نثر أو رواية، وهناك الفنون من تمثيل وموسيقى ورقص، وهذه الآداب والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يجيش به القلب، وهناك الفلسفة وطرائقها فى البحث وهناك قبل هذا كله، العقل الإنسانى الذى يستبد به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الأفاق المجهولة، والتجربة.. بحيث يغير، ويبدل فى حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراده الله له - وحيا ذاتيا فى نفس كل فرد يحمل النفثة الإلهية فى الإنسان، ويبدع نماذج وتجليات للحكمة التى تعزز الدين وتستكمل نقصه، وتحقق للحياة الإنسانية الثراء، والوفرة، والتعددية، وتربط ما بين القديم والجديد، الشرق والغرب اللغة العربية وغيرها من اللغات .

ولعل الله تعالى وهو العليم بذات النفوس لم يشأ للمسلمين أن يوغلوا فيما وجههم إليه القرآن من تقوى وورع بحيث يحيف هذا على حق الحياة الدنيا وما تتطلبه من مقتضيات فتذهب حياتهم الدنيا بدعوى الحرص على الحياة الآخرة والله تعالى يريد التوازن وأن لا يفقد المسلمون حياتهم ووجودهم الدنيوى فنص على الحكمة بجانب الكتاب وأورد ذلك فى الكتاب نفسه حتى لا يظن ظان أن الأخذ بها (أى الحكمة) يخالف الكتاب. لأن الله

تعالى أراد بجانب التدين الأخروى نوعا من التدين الدنيوى، بل أنه أعترف بما تنزع إليه النفوس بحكم طبيعتها، ولم يأت الإسلام لقمع الميول والعواطف، ولكن للحيلولة دون أن تستبد الشهوات بالناس فلا يعنوا إلا بها.

ونحن لا نستبعد أن ينتهى هذا المنهج إلى ما قد يجافى الحكمة نفسها، والميل إلى بعض ما "تهوى إليه الأنفس"، ولكن لا يدق على من يتعمق فى الأمور أن يرى أن هذا إنما أريد به توقى شر أعظم. ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن الإغراق فى العبادة وشدة الحرص على تجنب صغائر الذنوب قد أضاع على المسلمين حياتهم الدنيوية، وجعلهم يشقون على أنفسهم ويلزمونها بما لا يلزم، ويهدرون فى سبيل ذلك ما هو أجدى. وأنه أفقد فيهم حاسة الأولويات وواقع التعدديات. هذا كله فضلا عن أن معالجة الأوضاع لا يمكن أن تتم بتجاهل ما تتضمنه من جوانب قد لا تروق لنا.. إذ لابد من الاعتراف بها والتعامل معها تعاملا موضوعيا علميا، أى بالحكمة، وليس بالتجاهل أو بالقمع .

ولو أقتصر الله تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان من المحتمل أن يتعسف فهمه وتفسيره فئات من الناس أو أن يتخذوا منه أداة تحقق مآرب خاصة، واتجاهات معينة ولضاقت مجالات الحياة بالإنسان ووقعوا فى قبضة "كهنوت" يعسر لا ييسر ويغلق لا يفتح ويضيق لا يوسع، وهذا هو ما حدث للأسف الشديد، عندما تجاهل العلماء "الحكمة" فحرموا الفكر الإسلامى الإفادة من ثمار الحضارات البشرية، قديمة وجديدة شرقية، وغربية. فحجروا واسعا، وحبسوا أنفسهم – والإسلام – فى دائرة مغلقة .

إن "ثورة المعرفة" فى العصر الحديث وتدفقها من أربعة أركان العالم ووصولها عبر المطابع والقنوات الفضائية والإنترنت وخدمات التصنيف وضع تحت أيدى البحاث كل كنوز العالم القديم، وكل مستجدات العصر الحديث بحيث أصبح "الكتاب" أى القرآن يمثل دليل العمل والإطار

العريض للخطوط الرئيسية، أما ما يملأ الحياة فهى هـذه العلـوم والفنـون والمعارف التى تتدفق فيما يشبه الفيضان من كل الدول المتقدمة. وأصبحـت رمز ثروة وقوة العصر الحديث. ومن هنا تتضح حكمة الله تعالى فى النـص عليها مرجعاً وأصلاً من أصول الإسلام لأنها هى أداة التعدديـة والانفتـاح والإفادة من كل معارف العالم وهى بعد، ما يحقق العـزة والمنعـة والقـوة للمسلمين .

وقد طبق الرسول توجيه القرآن عندما قال "الحكمة ضالة المؤمن أنـا وجدها فهو أحق بها"، وقال "اطلبوا العلم ولو فى الصين"، ووجـه أصحابـه لتعلم اللغات وأخذ باقتراح سلمان شق الخندق الخ ..

واليوم تنفض دعوة الإحياء الإسلامى الغبار مـن علـى الحكمـة، وتعيدها إلى ما أرادها الله تعالى شريكة للكتاب فى الرسالة.. وتنهل من كـل معين للحكمة. من علوم، وفلسفة، وآداب وفنون دون حرج لأنها أصل نـص عليه الكتاب كمصدر للإسلام، كما أنها ليست إلا تجليات للفكر الإنسانى ومـا أودعه الله فيه من قوى تتوصل بها إلى الحقائق، وتصـول، وتجـول فـى مجالات الإبداع الإلهى المعجز وتفيد منه وتثرى الحياة به، وتسـعد القلـوب والعقول، وتسد الحاجات - فلا تكون فاقـة ماديـة ونفسـية - ولا احتكـار للمعارف ولا سدود قائمة تحول دون الإفادة من ذخائر الحضارة الإنسانية ..

الفصل الخامس

التعددية فى مجتمع إسلامى

تعود الإشارات الكثيرة التى أوردناها عن التعددية فى القرآن الكريم إلى وجود أصل رئيسى لها هو التصور الخاص للإسلام لما يكون عليه المجتمع البشرى الذى أشرنا إليه إشارة موجزة فى مقدمة هذه الرسالة، ولما كان المجتمع الإسلامى جزءا من المجتمع البشرى - حتى وإن كان له خصائصه المميزة - فإن ما يقال على المجتمع البشرى يصدق بدرجات متفاوتة على المجتمع الإسلامى .

ولما كان المجتمع يضم ملايين الأفراد وآلاف الهيئات فلابد من وجود التعددية بحكم الأمر الواقع من ناحية، ولأنه من ناحية أخرى لا يمكن لأى هيئة أن تستوعب الحقيقة. فالحقيقة أكبر أتساعا، وأكثر عمقا وأشد تعقيدا وتعميقا من مدارك فرد واحد أو هيئة واحدة. فالقصور البشرى يحول دون ذلك، وغلبة الذاتية على الفرد الواحد أو النظرة الواحدة تجعلها لا ترى إلا بعدا واحدا من أبعاد الحقيقة وتؤثر على أحكامها، وتجعلها بعيدة عن الموضوعية. ويمكن بالطبع لفرد أو لهيئة أن تمسك بشعبة من الحقيقة، أما أنه، أو أنها تستطيع الإحاطة بالحقيقة فهذا ما لا يمكن. وما يعنى أن لم يعد للآخرين فكر أو رأى أو مجال، وهو اختزال لمجتمع يناقض الطبائع

الاجتماعية ولا يعنى - فى النهاية - إلا فرض ديكتاتورية غشوية تقوم على الظلم وتنتهى بالفشل .

ومن الطبيعى أن تستتبع هذه التعددية وجود الاختلاف وقبوله لا على أساس أنه ضرورة سيئة ولكن على أساس أنه جزء لا يتجزء من بينة وكيان المجتمع، لا يمكن أن يقوم بدونه. ولما كانت تلك النقطة قد تبدو جديدة على الكثيرين ممن تثقفوا ثقافة إسلامية تقليدية واحدية، فقد رأينا أن نبسط القول فيها فى النبذة التالية .

قضية الاختلاف والائتلاف فى المجتمع الإسلامى :

الائتلاف والاختلاف هما قوام كل مجتمع، بما فى ذلك المجتمع الإسلامى.. فالمجتمع كالنسيج الذى يكتسب تماسكه وقوته من تلاقى اللحمة بالسدى. ومن تقابل الخطوط العرضية بالخطوط الطولية. والحقيقة أن الائتلاف والاختلاف لا يقتصر على المجتمع، فهما موجودان فى الكون كما أنهما موجودان فى الفرد، وداخل كل واحد منا تدور معارك وتحدث حروب لا يراها أحد ولا يحس بها صاحبها ما بين كرات الدم البيضاء والميكروب الذى يغزو الجسم ويصيبه بالأمراض، وهناك عمليات تتم فى جزء من ثانية غاية فى الدقة والتعقيد الكيميائى والكهربائى لتحويل الهواء إلى دماء وفرز الطعام وهضم ما يريده الجسم وطرد الزائد عنه الخ.. فالفرد الإنسانى كائن معقد، متعدد وأن كان هذا يتم فى إطار الكيان الفردى للفرد ولو عددت الخلايا التى تعمل داخله كما لو كانت جنودا لأشبهت جيشا جرارا يضم الملايين .

فإذا كان هو شأن الفرد، فإن هذا الفرد ما أن ينشئ أسرة حتى تتضخم المسئوليات، وتتعدد الائتلافات والاختلافات ما بين شخصه، وشخص زوجته، فإذا جاء الأبناء أضيف عامل جديد... وهذا كله بالنسبة

لأصغر دائرة من دوائر المجتمع وهى الأسـرة.. ولنـا أن نتصـور حجـم الائتلافات والاختلافات فى الوطن الذى يضم ملايين العائلات والأسر ..

من هنا فإن التسليم بالائتلاف والاختلاف فى المجتمـع، والالـتزام بآدابه هو الضمان لأن لا يتحول الاختلاف الذى هو جوهر التعدديـة إلـى خلاف هو جوهر الأحادية.. فالاختلاف يحتمل الرأى الآخر.. ولكن الخـلاف يضيق بالرأى الآخر، وبالتالى يسد المنافذ والطرق أمام التعددية لينتهى إلـى سيادة الرأى الواحد.. ونعتقد أن هذا من أكبر المخاطر التى تتعـرض لـها التعددية فى المجتمعات الإسلامية لأنها عادة حديثة عهد بالحريـة. والكثـير منها يؤمن بالإسلام "قولا واحدا" وأن الحق هو ما يراه هو، والآخر نوع مـن الضلال. فإذا لم يلتزم الجميع بآداب الاختلاف ويؤمنوا أن الاختـلاف فـى الفكر لا يثير حفيظة ولا يقتضى عداوة بل إنه أمـر مطلـوب لأن الحقيقـة أعظم من أن يستوعبها رأى واحد. وأن كان كل واحد يمكن أن يمسك بشعبه منها، وأن هذا لا يثير عداوة، ولا يبعث على التنديد بـالآخرين، وأن الفكـر والمجتمع هو غير الحساب والرياضـة لا يعنـى الاختـلاف فيـه الخطـأ والصواب بالمعنى الرياضى، وإنما هو النظر إلى بعد من أبعاد الحقيقـة لـم ينظر إليه الطرف الآخر أو التركيز على جانب لم يعطه الفريق الأخر حقـه، وهذا لا يعنى أن يتضارب فريق مع الآخر أو يتناقض معه ولكنه يكمله .

إن الذين يرون – كالمودودى – أن المجتمع الإسلامى الأمثـل هـو المجتمع الذى لا يوجد فيه إلا إمام واحد. وفكر واحد وحزب واحد يقـودون اتباعهم إلى نفق مظلم، ويؤخذون بفكر نظرى يناقض طبيعة الأشـياء ولـو قدر لهم الانتصار لجنوا على بلادهم أعظم الجنايات، وهم يحسـبون أنـهم يحسنون صنعا .

وهؤلاء لا يختلفون فى شئ عن جماعة أخرى تقيم مجتمعا أحاديـا لأن حديثا الله أعلم به يقطع بأن فرقة واحدة هى الناجية من الفرق السـبعين التى ستختلف عليها الأمة ...

وما على هذا تبنى النظم وتستخلص الأحكام ..

* * *

ويعطى ما جاء فى القرآن الكريم تحت مادة "اختلف" دلالات ثمينة تناقض الانطباع السائد، لأنها ترى أن الاختلاف ظاهرة طبيعية يقوم عليها الكون والمجتمع والفرد. فليس مر السنين إلا نتيجة لاختلاف الليل عن النهار ورأى القرآن فى هذا الاختلاف آية تثير الفكر ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾. وهو معنى مكرر فى عديد من الآيات كما تتمايز العناصر والشعوب ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾. ورأى فى اختلاف الألوان جمالا فى الطبيعة، والثمرات والجبال، وجعل الناس "شعوبا وقبائل لتعارفوا"

ورأى القرآن الكريم أن الاختلاف فى المجتمع هو أمر لا مناص عنه، وأن الاتفاق أمر مستبعد، أن لم يكن مستحيلا، وأن محاولة فوض رأى معين على الآخرين يثير العناد ويدفع للتمسك بالرأى الآخر ويصبب العلاقة بسم العداوة.. ولهذا فأنه أحال البت فى هذا الاختلاف إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة. وهو ما يغنى الفرقاء عن الصراع والكفاح والعمل بكل وسيلة لحمل الآخرين على التسليم لهم .

وكان هذا هو الحل الأمثل فما دام الاختلاف قائما وما دام المطلوب هو أن لا يثير هذا الاختلاف العداوة والبغضاء والنزاع والخصام، فلا مفر من إيكال الأمر إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة .

ومراجعة مادة "اختلفوا" فى القرآن توضح ذلك كما يلى ..

- **﴿ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ .{٥٥ آل عمران}**
- **﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ . {٤٨ المائدة}**

- ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ .
{١٦٤ الأنعام}

- ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ . {٦٩ الحج}

- ﴿قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه﴾ .
{٦٣ الزخرف}

- ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ . {١١٣ البقرة}

- ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ .
{١٩ يونس}

- ﴿إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .
{٩٣ يونس}

- ﴿ ليبين لهم الذى يختلفون فيه .. .. ﴾ . {٣٩ النحل}

- ﴿وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .

{١٢٤ النحل}

- ﴿ومهما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ذالكم ربى عليه توكلت وإليه أنيب﴾ . {١٠ الشورى}

- ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .
{٢٥ السجدة}

- ﴿إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون .. .. ﴾ . {٣ الزمر}

- ﴿ أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون﴾ . {٤٦ الزمر}

وثمة لفته هامة أشار إليها القرآن أكثر من مرة بالنسبة للاختلاف، تلك هى أن هيمنة البغى هى التى تجعل الاختلاف أمرا سيئا ..

- ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾ {البقرة ٢١٣}
- ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جـاءهم العلـم بغيـا بينهم﴾ . {١٩ آل عمران}

وأقرب المعانى إلى ما أراده القرآن الكريم بتعبير "بغيا بينـهم" هـو السلطة التى هى بطبيعتها مفسدة ويغلب دائما أن تغـرس بـذرة البغـى، وبدون هذا لا يحتدم الاختلاف أو يتحول إلى عداوة، والتاريخ السياسـى فى المجتمع الإسلامى شاهد على هذا. فأفضلية الإمام على كرم الله وجهه على أبى بكر أو عمر كان يمكن أن تكون اجتـهادا نظريـا صائبـا، أو خاطئا. ولكن عندما أصبح له مضمون سياسى وسـلطوى تسـبب فـى انشقاق الأمة. كما أن فكرة خلق القرآن كان يمكن أن تعد حذلقة فلسـفية أو ترف فكرى. ولكن عندما آمن بها الحاكم واتخذها مذهبا مقـررا فـى الدولة أنتهى باضطهاد المخالفين وجلد الإمام الجليل أحمد بن حنبل .

فإذا كان القرآن قد أقر الاختلاف، ووكل الفصل فيه إلى الله تعـالى يوم القيامة، فإن السنة أيضا أقرت الاختلاف عندمـا ارتـأى الرسـول أن للمجتهد المصيب حسنتين (أو أجرين)، وللمخطأ حسـنة (أو أجـر) فأثـاب المجتهد الذى يخطئه التوفيق، فإذا كانت حسنة التوفيق قد اخطأته، فإن حسنة الاجتهاد لم تفته. **وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الاعـتراف بالتعدديـة وبحرية الفكر لأنه يجاوز إطار الإقرار إلى درجة التشجيع.** كما أن الرسـول أقر الاختلاف فى جانب هام له قداسته الخاصة وهو قراءات القـرآن. فقـد صعب على بعض قبائل العرب النطق بلغة قريش فى بعض الآيات ونطقوها بطريقة مختلفة فأجاز الرسول لهم ذلك ما دام التغيير مقصورا على طريقـة النطق بالكلمة دون مساس بمعناهـا، وأن التطـور سـيقضى علـى هـذه الاختلافات الآنية، وكان هذا هو الأصل فى تعدد القراءات القرآنية .

ومعلوم جيدا أن الصحابة كانوا يختلفون فى فتاويهم، وأن هـــذا لــم يؤثر أبدا على مشاعر المودة والتقدير المتبادلة. وورث التابعون هذه الصفــة عن الصحابة، كما ورثها تابعوا التابعين.. ولم يـــثر الاختـــلاف عـــداوة إلا عندما أرتبط – فيما بعد – بالسلطة .

ولم يجد الصحابة والتابعون حرجا فى اختلافـــهم، وكـــانت وشـــائج التقدير والحب تربط بين الذين جمعهم وقت واحد مثل مالك والشافعي والليث ومحمد بن الحسن الخ.. وكان بعضهم يأخذ فى – بعض المناسبات – ببعـض ما ذهب إليه الآخرون وكانوا جميعا ينهون الناس عن أن يقلدوهم ويأمرونـــهم بأنعام النظر والتدبر .

وقال القاسم بن محمد – أحد أئمة المدينة الســـبعة – "لقــد نفـــع الله باختلاف أصحاب محمد ﷺ فى أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منـــهم إلا رأى أنه فى سعة" وقال عمر بن عبد العزيز "ما يسرنى أن أصحاب محمـــــد ﷺ لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فمخالفهم ضال، وإذا اختلفوا فـــأخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا كان فى الأمر سعة" .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة للاختلافات ما بيـــن الأئمـــة، ونمـــاذج ردودهم مثل :

١. الرد على سير الأوزاعى لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم .
٢. الرد على أبى حنيفة لأبى بكر بن أبى شيبة ضمن كتابه المصنف .
٣. الرد على محمد بن الحسن الشيبانى للإمام الشافعى .
٤. بيان خطأ أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى تاريخه لأبـــى محمد بن أبى حاتم الرازى .

٥. كشف الأوهام التى فى كتاب "المدخل إلى الصحيح" الذى صنفه الحاكم النيسابورى لعبد الغنى الأزدى .

٦. بيان الوهم والإبهام الواقعين فى كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلى لأبن القطان .

٧. إصلاح غلط أبى عبيد فى غريب الحديث لأبن قتيبة الدينورى .

٨. ما دار بين الليث بن سعد إلى مالك بن أنس من مكاتبات تكشف عن الأدب الجم والتقدير المتبادل .

وهذا قليل من كثير ..

ومعروف أن الإمام مالك بن أنس رفض أن يكون كتاب "الموطأ" هو المرجع الوحيد فى الأحكام عندما أراد ذلك الخليفة أبو جعفر المنصور. كما أنه (أى الخليفة المنصور) رفض ما اقترحه ابن المقفع فى رسالة الصحابة تقنين الفقه أو الأخذ بإحدى وجهات النظر الفقهية. وقد حاول عمر بن عبد العزيز شيئاً من هذا من قبل، وكان ذلك فى أصل فكرته عن تدوين السنن، ولكن الطبيعة التعددية المتفتحة للمجتمع الإسلامى حقبة النهضة والفتوة والثقة فى النفس كانت أقوى من أن تستسلم للقيود أو الضوابط، وظل الاجتهاد سارياً حتى أدى إلى نوع من البلبلة فى الأحكام فى البلد الواحد. فى الوقت الواحد. وكان المفروض أن يوجد نوع من التنظيم وإطار من الضوابط – لأن الضوابط مما لا مناص عنها فى أى عمل اجتماعى – ولكن فتوه المجتمع الإسلامى وقتئذ استعصت على ذلك، وكان الحل المؤسف فيما بعد هو إغلاق باب الاجتهاد والاقتصار على المذاهب التى أثبتت رسوخها، ويلحظ أنه حتى فى هذه الحالة فإن التحديد لم يأخذ شكل الواحدية ولكن بالإضافة إلى المذاهب الأربعة، فإنه ضم المذاهب الأخرى كالأثنى عشريا

فى إيران والزيدية فى اليمن والاباضية التى يؤمن بها البعض فـــى عمـــان.
كما أن مذهب الطبرى وداود الظاهرى (ومعه ابن حزم) أى الظاهرية .

* * *

بالإضافة إلى هذه الضرورية الأصولية للاختلاف فى المجتمع، فقـــد كان هناك عاملان أديا إلى التعددية فى مجتمع إسلامى هما هداية الأنبيـــاء، وغواية الشياطين ..

أ. هداية الأنبياء :

إنه لمن الطبيعى فى مجتمع يؤمن بدين ما، أن يكون الدين هو أكـــبر عامل فيه. فهداية الأنبياء هى محور هذا المجتمع. وهذه الهدايـــة لا تأخذ شكل الواحدية فى المجتمع، ولكن التعددية، كما أثبتنا ذلك فـــى الفصول السابقة عن إشارات القرآن إلى التعددية وعن قبوله لتعدديـــة الأديان، وأن داخل إطار المجتمع الإســـلامى تتعـــدد الاجتـــهادات وتتباين الآراء وتظهر المذاهب، وإن كانت هذه التعددية تـــأوى فـــى النهاية إلى إطار فسيح وإلى أصل مكين هو الإسلام ونحن فى غنـــى عن أن نكرره هنا، لأن المقصود هو الإشارة إليه، كعامل بارز مـــن عوامل التعددية أما شرحه وتبيانه والبرهنة عليه فهذا مـــا تضمنتـــه الفصول السابقة .

ب. غواية الشياطين ..

العامل الثانى الذى يؤدى إلى تعددية تختلف عن التعددية السابقة فـــى إنها قد تشط حتى تجاوز إطار السمت الإسلامى هو غواية الشيطان

فقد خلق الله تعالى الإنسان من "طين" ليتلاءم مع تربة الأرض التـــى سيعيش عليها وضروراتها الملزمة ونفث فيه من روحه ليمكنـــه – إذا أراد –

من السمو إلى سماوات القيم ووهبه عقلاً يميز به ما بين الخطـأ والصـواب وقلبا يهديه إلى الخير دون الشر. ولكن الله تعـالى العليـم بالإنسـان ومـا توسوس به نفسه - رأى أن هذا كله لا يعصم الإنسان مـن الانحرافـات أو إيثار اللهو واللذة والمتعة على العمل والقصد والاعتدال. دعم الإنسان بهدايـة الأنبياء الذين عرفوه المعرفة الحقة - على الله تعالى، وعلـى مـا يحـدث للإنسان بعد الموت وهو ما يعجز العقل عن الوصول إليه ..

واقتضت إرادة الله وحكمته البالغة أن يكون هناك محـك للإيمـان، ولمدى عمقه أو سطحيته فى نفوس الناس، فمن أسهل الأشـياء الإدعـاء أو التظاهر. ولذلك جعل الله تعالى "العمل" مصداقاً للإيمان فالإيمان دون عمـل يظل ادعاءً حتى يثبته - أو ينفيه - العمل ..

ولكن هذا العمل يحتاج بدوره إلى محك يكفل دوامه ويثبت صمـوده أمام الشهوات وما تهوى الأنفس .

أن الملائكة لا تتعرض للإغواء، وإيمان هؤلاء الملائكة لاشك فيـه. كما أن عملهم هو التسبيح والتهليل وكان يمكن أن يكونوا أفضل من البشـر، ولكن الله تعالى أراد للمجتمع البشرى أن يكون شـيئا آخـر غـير مجتمـع الملائكة، أراد له أن يتعرض للإغواء - كأقوى ما يكـون الإغـواء - ثـم ينتصر على هذا الإغواء بفضل الإيمان وبهذا الانتصار فضل البشـر علـى الملائكة الذين لا يتعرضون لأى إغواء ..

وقد أشار القرآن إلى هذه القوة الفعالة فى المجتمع البشرى "بما فيـه المجتمع الإسلامى" فى عديد من الآيات بصورة صريحة، وجازمة ووصلـت إلى الدرجة التى يمكن أن يقال فيها إن الله تعالى أعطى الشـيطان "كـارت بلانش" كما يقولون أو حتى أمره بها، وزاد له من السلطة ليقوم بدوره فـى غواية الإنسان وأن هذه السلطة التى تضم المجالات العديـدة التـى ذكرهـا

القرآن ستبقى وستستمر إلى يوم الساعة، وكأن القرآن يريد أن يقـــول إنـــها عنصر دائم وباق، ولا يمكن للمجتمع البشرى أن يتحرر منه إلى يوم الساعة

وأقرأ مثلاً ..

- ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسـجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ . {١١ الأعراف}
- ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى مـــن نـــار وخلقته من طين﴾ . {١٢ الأعراف}
- ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيـــها فـــاخرج إنـــك مـــن الصاغرين﴾ . {١٣ الأعراف}
- ﴿قال أنظرنى إلى يوم يبعثون﴾ . {١٤ الأعراف}
- ﴿قال إنك من المنظرين﴾ . {١٥ الأعراف}
- ﴿قال فيما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ . {١٦ الأعراف}
- ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ . {١٧ الأعراف}
- ﴿قال أخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكـــم أجمعين﴾ . {١٨ الأعراف}
- ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأســـجد لمـــن خلقت طينا﴾ . {٦١ الإسراء}
- ﴿قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتـــن إلـــى يـــوم القيامـــة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ . {٦٢ الإسراء}
- ﴿قال أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً﴾ . {٦٣ الإسراء}

- ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ .

{٦٤ الإسراء}

- ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾ . {٦٥ الإسراء}

لقد كانت قضية "الشر" ووجوده فى المجتمع من المسائل التى شغلت الفكر الدينى من أقدم العصور حتى لقد قامت أديان على أساس وجود إلهين إله للخير، وإله للشر أو إله للنور، وآخر للظلام، وهذا أكبر دليل على قصور الفهم البشرى عندما يتصدى لقضية الألوهية فهو يجعلها نوعا من السجال بين قوتين لن يسفر بالطبع إلا عن صراع. فى حين أن الفرض الذى قدمه الإسلام هو الحل الأمثل فقد أبرز الشيطان – ما بين الحقيقة المادية والمجاز النظرى – كرمز للشر الذى يتأتى بالدرجة الأولى من الاستعلاء والأثرة والأنانية وغلبة الذات عندما رفض السجود لآدم بحجة أنه خير منه ﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ وأن هذه الطبيعة فيه قد دفعته لإغواء آدم، ومن ثم فإن الله تعالى ترك له هذه المهمة التى خلق لها أو التى اختارها، ولم يخش على المؤمنين لأن هداية الأنبياء تحصنهم من هذه الغواية، وفى الوقت نفسه فإن هذه الغواية، وما ستأخذه من صور وممارسات تثير فى نفوس الصادقين قوة المقاومة فيزدادوا إيمانا، أما من هم دونهم فأمامهم درجات عديدة من السلوك التى يخلطون فيها عملا حسنا بعمل سيئ ، وقد لا تفوتهم التوبة بعد الندم، فإذا استسلموا تماما أو حتى تمادوا فإنهم يكونون مثلا مروعا يردع المؤمنين من أن يترددوا فيه. ولم يكن هناك مناص من هذا كله. لأن الشر على سوئه كان لازما لكى تبرز خصيصة الخير، فبضدها تتبين الأشياء كما فطن إلى ذلك الشاعر، ومن هنا كان لابد من وجود الشيطان، ولابد من أن يقوم بدوره الرجيم، ما دام الله تعالى قد أراد للحياة الإنسانية أن تكون دار ابتلاء واختبار وأن يقوم المجتمع

على أساس الحرية والاختيار، ولهذا يكون أقل نقاء من مجتمع الملائكة. الأمر الذى جعل الملائكة تعجز عن فهم حكمة استخلاف الله لهذا المخلوق، ولكن الله تعالى يعلم ما لا يعلمون .

وأوضحت آيات عديدة أن لا أحد يفلت من غواية الشيطان حتى الأنبياء أنفسهم، بل لقد بدأت الحياة الدنيا نتيجة لغواية الشيطان الأولى لآدم ثم تواصلت هذه الغواية مع ظهور الأنبياء فقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ {٥٢ الحج} ..

وتحدث القرآن عن أخطاء للأنبياء فى غير ما كلفوا بتبليغه فقال عن آدم ﴿فنسى ولم نجد له عزما﴾ وعن سليمان ﴿ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا﴾ وقال عن يوسف ﴿ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه﴾ وروى عن موسى ﴿قتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا﴾ وقال عن ذى النون ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا لربه فظن أن لن نقدر عليه﴾ وقال عن محمد ﷺ ﴿ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك﴾ ﴿وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾[1].{٧٣ – ٧٤ الإسراء} ..

ولم ينف الأنبياء أنفسهم ذلك فكلهم مثل يوسف ﴿وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ فالأنبياء جميعا محفوفون برعاية الله وهذه الرعاية تجعلهم ينتصرون على الشياطين، ولكنهم بدونها يصبحون كبقية البشر. وقد قال النبى إن الشيطان يسرى من الإنسان مسرى الدم، وقال إن لكل واحد شيطان فلما سألوه "حتى أنت يا رسول الله" أجاب

---

(١) لا نجهل ما تذكره كتب التفسير عن هذه الآيات. لكن ظاهر الكلمات والسياق يأباها. وليس الأنبياء بعد بمعصومين لولا رحمة الله لهم وفضله عليهم .

بالإيجاب ولكن الله تعالى نصره عليه – فلا يتصور، والأمر هكذا أن يخلو مجتمع بشرى – إسلامى أو غير إسلامى من غواية الشيطان لأنه فى النهاية مجتمع بشرى وليس مجتمع ملائكة [1]

بل لو أخذنا بالقياس فإن أعظم ما يفترض أن يقوم به الشياطين يكون فى مجتمع إسلامى، لأن مهمة الشياطين هى فتنه المؤمنين .

وأبرزت الآيات المجالات التى يمكن للشيطان أن يؤتى الإنسان منها وهى المال، والنساء، بالإضافة إلى السلطة التى تعود بذرتها إلى الأنانية والكبرياء، والاستعلاء، والزهو، وحب السيطرة الذى يتجلى عادة فى مجال الحكم، ويفسده .

وطبقا لهذا لا يكون مستغربا أن تظهر صور عديدة لممارسات خضعت للشيطان فى مختلف الحالات. فيظهر الاستبداد فى السياسة، والتفارق فى الثروات ما بين الذين يتضورون جوعا والذين ينتفخون ثراء، ويلوث النفاق والكذب الأقوال والأفعال وتظهر "الكاسيات العاريات" ليس فحسب على الشواطئ، ولكن فى شوارع المدينة، وتنتشر دور السينما، والمسارح، والملاهى، وتروج الصحافة الصفراء، وروايات الجنس والغرام الخ ..

ولا يتصور مجتمع بشرى لم يمارس فيه الشيطان مهمته فى هذه المجالات، ونرى شواهد لها فى كل المجتمعات، والفرق بين المجتمع

---

(٢) لقد ثار التساؤل عن مصير الشيطان فى اليوم الآخر، فهو فى فتنته للناس وإشاعته المنكرات إنما كان يعمل برخصة من الله، وإن كان بالطبع قد أخطأ خطأ فاحشا عندما رفض إطاعة الأمر بالسجود، ولكنه ما كان يمكن أن يعصى الله خارقا إطار القدرة الإلهية. ومع أن الحديث عن هذا هو مما يخرج عن إطار الموضوع، وما ننصح دائما بتجنبه باعتباره يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأنه من الغيب الذى لا يكون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القرآن، ولكن لعل الله تعالى أعطانا إشارة عندما خلقه من نار، وعندما ما يقذف به فى النهاية فى النار ليذوب وينتهى .. من النار بدأ، وإلى النار يعود ..

الإسلامى وبقية المجتمعات البشرية أن المجتمع الإسلامى لديه مـــن القـــوى الإيمانية والخيرة ما يحد من مدى فجور وانتشار هذه الموبقات وأن يصمـــد بدرجات متفاوتة أمام هذه المهالك والمغريات .

وكان من ذكاء الشيطان أن أخفى عن المسلمين القدامى والمحدثيـــن أهمية ومنزلة الحكم، والآثار المدوية لإفساده بحيث لم تكن محـــل ملاحظـــة وتعقب المصلحين، قدر ما ضخم من أهمية آثار الافتتان بالمرأة، وضـــرورة العمل بكل الطرق للحيلولة ما بين المجتمع الإسلامى وهذا البلاء المستطير .

وكان هذا الموقف هو الذى سمح لمعاوية بأن يحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، مع حرص المجتمع على الوقوف من المرأة موقفا ظـــن أنه الموقف الإسلامى وكان هذا دليـــلا لا يدحـــض علـــى غفلـــة المجتمـــع الإسلامى وتخلف تقديره، واختلال الموازين فى وقت مبكر جدا، ولأســـباب عديدة لا يتسع المجال لتفصيلها، ليقضى الله أمرا كان مفعولا وتحقق نبـــوءة الرسول عن تحلل عرى الإسلام عروة عروة "فأولها الحكم وآخرها الصلاة"

ونحن لا ندين الأسلاف فقد كان هناك أسباب عديدة أدت إلـــى هـــذا الموقف ولكن ما نرى أنه يستحق اللوم هو موقف الفقهاء المعاصرين الذيـــن كان عليهم أن يروا ما دق على أسلافهم، أو أن يتحرروا من قوى الرواســـب التى تحكمت فى الأسلاف .

فما قيمة الضرر الذى تحدثه امرأة ترقص وهى ترتدى زيا يكشـــف أكثر مما يحجب أمام قرارات حاكم مطلق يذل ويتحكم فى معارضيه. علـــى الأقل إن إساءة المرأة لن تلحق إلا بأفراد جاءوا بمحض إرادتهم، بل دفعـــوا أجرا للدخول لكى يشاهدوا هذه المنكرات ..

وما قيمة مسرح أو مرقص يصخب رواده ويرقصون أو يشـــاهدون أفلاما جنسية إزاء وضع يقضى باستغلال العمال وتشغيلهم ســـاعات طويلـــة

تنهك صحتهم لقاء أجور هزيلة لا تفي بحاجة الأفواه الجائعة، أو يستخدم وسائل الاحتكار والغش لمضاعفة أرباحه .

إن مجرد وجود المشاهد التي تثير الأغراء يختلف عن الوجوب الذي يتضمنه أي قرار سياسي فوجود مشاهد الفتنة والأغراء لا يقوى وحده على جذب المشاهد، لأن عددا كبيرا من العوامل قد يحول دون تلك من صلابة، أو مشغولية، أو خوف الخ.. ولكن قرارا سياسيا يصدره الحاكم يطبق فورا وعلى جميع من ينطبق عليهم هذا القرار، حتى لو كانوا كل المواطنين، وقد يجعل الأغنياء أكثر غنى، والفقراء أكثر فقرا وقد يشل الحريات ويفرض الخوف والرعب والإرهاب على الناس ويمتهن الكرامات ويقهر النفوس، كما يحدث في معظم نظم الحكم في الدول الإسلامية قديما وحديثا .

أن الرسول عندما رأى أعرابا في أسمال "أحمر" وجهه "كأنما فقئ في وجهه حب الرمان" لأن مشاهدة هذه الأسمال يثير الخجل، ولم يستعد الرضا إلا بعد أن خطب وانهالت عليهم الملابس من كل حدب وصوب ولكن الإسلاميين المحدثين لا يستشعرون خجلا أمام مظاهر الفاقة المدقعة.. وإنما يحسونه أمام امرأة عارية ..

وهكذا فإن غواية الشياطين لابد وأن توجد في المجتمع الإسلامي صورا من التعديات والممارسات المخالفة والنابية عن أدب الإسلام سواء كان في شهوات الجنس أو دعوات الثراء والاستزادة من المال. أو النظم التي تسخر الجماهير لخدمة الحاكم وتفرض حكم القوة.. ويفترض أن يكون لدى المسلم الكياسة والفطنة للتمييز بينها على أساس خطورتها على المجتمع وأثارها الوبيلة وأن يمنح الأولوية لكل ما يمس الحكم، ويتلوه ذلك ممارسات الإثراء والتكاثر وأخيرا فتنة المرأة والجنس، وله بالطبع حق مقاومتها جميعا بكل الطرق، أو التحصن من الوقوع في شراكها وقد يجد فيها ما يستثير فيه التمسك بدعوته والحرص عليها.. وعليه في الحالات التي يعجز فيها عن

ضبط نفسه ويتغلب عليه الضعف. أن يستدرك هـــذا بالتوبـــة والاســـتغفار والقيـــام بالأعمال الصالحة التى تجب السيئات .

وهذا الأسلوب يختلف جذريا عن أسلوب الفقهاء فى سد باب الذريعـة ومحاولة حماية الفرد المسلم فى "صوبا" تبعده عن المغريات، وقـــد عالجنـــا تلك النقطة فى كتابات عديدة وأوضحنا أفضلية الأسلوب القرآنـــى وحيويتـــه وفعالية على أسلوب سد الذريعة ..

* * *

وقد يقول قائل ما هى الحكمة التى أرادهـــا الله تعـــالى مـــن هـــذه "التمثيلية" فنقول هل هناك أروع وأعظم من إيجاد هذا المجتمـــع الإنســـانى العظيم الذى يضم المليارات كل واحد له شخصيته المنفردة، وله اهتماماتـــه الخاصة، وكل هذه الصور الرائعة، المتوهجة، من نشاط الناس فـــى أربعـــة أركان الأرض وأنشطتهم من صناعة وزراعة وفنـــون وآداب واكتشـــافات واختراعات ؟ أن المصور الذى يرسم أو النحات الذى ينحت مائـــة شـــخص مثلا كل واحد مختلف عن الآخر يعد عبقريا فما بالك بالذى يخلـــق بـــالفعل الملايين بل البلايين ويعطيها القوة والحيـــاة والعقـــل والذكـــاء والعواطـــف والشهوات، والشخصية الخاصة. هل هناك أروع مما وصل إليه المجتمـــع أو أعظم من صور الجمال الذى توصلت إليه الفنون أو أدق وأعجب من أســـرار الصناعة والإدارة والتنظيم التى تسير عجلة هذا المجتمع فى نعومة ويسر .

لقد أسلم الله تعالى هذه الأرض للإنسان فأضاف إلى جمالها الـــبرى الطبيعى جمالا حضاريا أضاء كل جنباتها بالنور وغرس فى تربتها الزهـــور وأقام على أرضها ناطحات السحاب والمصـــانع التـــى تصنـــع الطـــائرات والسيارات وأجهزة التلفاز والصواريخ التى تنطلق محررة لأول مـــرة مـــن إسار الجاذبية الأرضية وتصل لأول مرة إلى كواكب أخرى غـــير الأرض.

وأقام الجامعات ومعاهد الأبحاث والمستشفيات ودور الفنون علـــىَ اختلافــها من موسيقى أو تمثيل أو سينما.. وهناك الملايين والملايين من البيوت فـــى كل منها أسرة تستمتع بالدفء والحب والسعادة، وإذا كان هذا ليس حظ كـــل البشرية، وإنما هو مقصور على الدول المتقدمة، فليس هناك ما يقـــف أمـــام بقية الدول للوصول إلى هذه الدرجة كما قد يكون لدى هذه الدول من ديـن أو فكر أو قيم ما تفتقده الدول المتقدمة ..

وعندما يجاوز التطور البشرى حده، ويبلغ غايته بحيث يظنَ الإنسان أنه أصبح سيد الكون عندئذ يؤذن الله تعالى بنهايته لأنه جاوز طوره وقـدره، ومن رحمة الله أن هذه النهاية لا تعنى الفناء والعدم وإنما هى مقدمـــه لعـــالم آخر يختلف اختلافا تاما عن عالم الحياة الدنيا عالم تتجلى فيه قدرة الله التـــى لا يحدها حد ولا يشوبها نقص .

فكيف لا يكون فى هذا كله من بدأ الخلق حتى أعادته حكمة وغائيـــة وروعة تأخذ بالألباب .

الفصل السادس

آليات ضبط التعددية

قد يبدو أن التعددية ليست فى حاجة إلى آليات لضبطها لأن طبيعة التعددية تسمح بكل التوجيهات والتيارات، وبهذا يمكن لكل ناقد أن ينتقد ولكل مصلح أن يصلح، فهى كالحرية تصلح أخطاءها وشططها بنفسها ولكن التجربة تعلمنا أن الآليات الطبيعية تتعرض لعوامل ذاتية عديدة تحولها عن غايتها أو توهنها، وما النقص فى الرأسمالية – وهى تطبيق الحرية فى الاقتصاد – إلا أنها اعتمدت كليه على آليات السوق وقوانينه كالعرض والطلب والمنافسة وغيرها التى ظهر أنها غير كافية .

كما دفعت الديمقراطية غاليا ثمن افتقاد الضوابط إذ نشأت بين أعطافها الدعوات الشمولية التى أودت بها ولم ينفعها انفتاح تعدديتها أو انفساح حديتها، لأن عملية الهدم أسهل من عملية البناء ولأن استهواء العواطف والشهوات أكثر تأثيرا من استهداء العقل واستلهام الحكمة. وتعلمنا المباريات الرياضية ضرورة وجود "قواعد اللعبة" التى تحول دون انحراف اللاعبين، كما نجد لكل لعبة حكمها الذى يطبق هذه القواعد ويؤاخذ كل من ينحرف عنها ولم يقل أحد إن قواعد اللعبة ووجود الحكم يضيقان من الحرية أو يعرقلان اللعبة. فالكل يجمع عليها دون استثناءات ذلك أن وجود قواعد

اللعبة واحترامها هو وحده الذى يكفل مضى اللعبة واستمرارها ونجاحها ويحول دون تعثرها وانحرافها .

من هنا فإن من المهم التثبت من وجود آليات لضبط المعالجات لا تعد حجراً على التعددية، ولكن تنظيما لها حتى لا تهدر التعددية نفسها بنفسها أو ينتهى الأمر فيها إلى مجرد عرض الآراء. فإن الغرض من التعددية – فى النهاية – التوصل إلى أوضاع تحقق الأهداف المطلوبة ويكمل بعضها بعضاً، وبهذا يتحقق الوصول إلى الهدف وينتفى أن تتبدد الجهود سدى أو أن تحطم بعضها بعضاً، ولكى تظل المعالجة مستمرة لضمان حسن التطبيق أو علاج ما يكشف عنه التطبيق من مآخذ .

توفر درجة من الوعى السليم بالإسلام ..

للتعددية فى مجتمع إسلامى طابعها الذى يميزها عن التعددية فى مجتمع غير إسلامى. لأن الخصوصية تفرض نفسها، وتعد من مقومات الشخصية العامة وليس الغرض من التعددية طمس هذه "الشخصية" الإسلامية، أو المصرية التى تعد خصوصية أخرى ولا تتعارض الخصوصية الإسلامية مع الخصوصية المصرية، فهذه الأخيرة تقدم إضافة خاصة، وهما معا لا يتعارضان مع التعددية .

ويعد توفر قدر من الوعى الرشيد بالإسلام من العوامل التى ترشد التعددية وتجنبها الانحراف نحو اتجاهات قد تكون سليمة موضوعياً، ولكنها غير مواتية فى مجتمع إسلامى أو مصرى أو أنها تؤدى إلى إذابة أو طمس لخصوصية تمثل إضافة وتمييزاً.. ويفترض أن يغرس الأبوان، وبصفة خاصة الأم بذرة هذا الوعى فى الأبناء. ثم تتولاه المدرسة ووسائل الإعلام بتوسيع إطاره، فما لم يفهم الإسلام فهما رشيداً مرناً متفتحاً. فقد يؤدى هذا

إلى فض التعددية، أو الضيق بها أو العمل على أن تأخذ لونا معينا أو حــــداً أقصى لا تتجاوزه مما قد يحول دون ظهور التعددية أصلاً .

وما بين الخصوصية التى لابد وأن تكــون لتعدديــة فــى مجتمــع إسلامى، وما بين العمومية التى تفترضها طبيعة التعددية الحـــرة التــى لا تعرف حدوداً أو قيوداً يوجد موطأ القدم الذى تقــف عليـــه التعدديــة فــى مجتمع إسلامى / مصرى، ويتفاعل من منطلق لا يضيق بـــه الإســلام بــل يمكن القول إنه إسلامى خالص هو حرية الفكر التى إن وصلت إلى الإطلاق فى القول والكتابة فإنها عندما يراد تطبيقها لابد وأن تصطـــدم بضـــرورات الواقع التى قد تكون من القوة بحيث تغلب من يغالبها .

ويحل الإشكال أن الإيمان ما دام صادراً من أفراد، ومـــا دام يتبــع الطريقة التى تمليها "قواعد اللعبة" أعنى أن تكون بالحكمة والموعظة الحسـنة فإن درجة من الإصلاح ستتحقق وستتخلخل الصفوف العريضة للمعــارضين وتتأثر الرواسب المذهبية، وستكسب الدعوة أنصـــاراً ومــع مــر الزمــن، وبمواصلة الجهود سيمكن التوصل إلى الانتصار فى النهاية .

وفى الوقت نفسه فإن حرية المعارضين فى عرض وجهات نظرهــم فى الحفاظ والاتباع وضرورة ملاحظة اعتبارات عديدة ستحول دون انــزلاق أراء الذين يريدون الإصلاح والتحرر من إسار الماضى إلـــى درجــة مــن الشطط التى لا يمكن التحكم فيها مما قد يؤدى إلى حالة من الفوضى والتحلل يمكن أن تنتقل من مجال الفكر إلى مجال العمل ويكون لها نتائج سلبية ســيئة على اقتصاد وأوضاع البلاد وهو أمر غير مطلوب بالطبع .

وعندما يكون التعصب وضيق الأفق مستولياً على جماهير غفــيرة – كما هو الحال للأسف فى معظم الدول العربية والإســلامية – فــإن عمليــة التعددية ستكون شاقة وقد تتحول من السجال الفكرى إلى العراك اليــدوى أو

التهديد بالقتل وليس هناك من حل "مشفى" جاهز، وقد يكون أقرب الحلول هو إبراز توجيهات القرآن الكريم ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾ . (٦٤ آل عمران) ..

كما يؤدى إلى تقبل التعددية التعريف بآداب الائتلاف والاختلاف فى الإسلام التى أشرنا إليها فى الفصل السابق واستيعابها تماما .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ..

يعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - أحد ضمانات التعددية لأنه ليس إلا ترخيصا بحرية الفكر وتأكيدا عليها إيجابا وسلبا - ولو أنعدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان من المحتمل دخول منكرات لا عداد لها دون احتجاج أو نقد ولكان من الممكن لبعضها القضاء على التعددية نفسها، ولكان من الممكن أيضا أن لا يوجد المعروف، أو أن تكون ممارسته ممارسة سيئة دون أن يوجد من يصحح السقيم ويستكمل الناقص أو تكون القاعدة فى هذا المجتمع هى "ألانا مالية" "أنا مالى" ..

ولكن إساءة فهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يمكن أن تجعل منه أداة لوأد التعددية، أو الحيف عليها لا أن يكون ضمانا لها. عندما يتخذه أنصار النظرة الأحادية، وأصحاب شعار " قولا واحدا " سلاحا بتارا يسلطونه على كل صاحب نظرة مختلفة، وقد لا يتسبب عن هذا شر مستطير ما دام محصورا فى إطار الفكر (أو اللسان - كما يشير الحديث المشهور"من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع بلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان) ولكن يغلب أن ينتقل من إطار الفكر واللسان إلى مجال اليد والعمل لأن الحديث جعل الأولوية للتغيير باليد، وإنما جعل اللسان والقلب عند عدم الاستطاعة .

لقد جاءت صياغة الحديث الذى يعد عماد هذا التوجيه مختلفة عن صياغة القرآن. فهذه الأخيرة تقتصر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حين أن الحديث يتضمن تغييرا لا مجرد أمر ونهى وحدد له ثلاث مستويات هى اليد، واللسان والقلب، ولابد لاختلاف هذه الصياغة من مبرر.

فى نظرنا أن تضمن الحديث التغيير باليد إنما يراد به حالات معينه لا يكون فيها بديل آخر. فإذا وجد أحدنا فردا يحاول القيام بجريمة ما كأن يشعل نارا فى بيت أو يضرب حيوانا بقسوة.. أو حتى يحاول الانتحار عندئذ يصبح اللواذ باليد أمرا لا مناص عنه.. أما ما يورده الفقهاء عن سلطة للفرد على آخرين تعطيه حق التأديب كسلطة الأب على الابن والزوج على الزوجة، فهذا ما لا نفضل الخوض فيه تأسيا بالرسول الذى ما ضرب أحدا قط، ولا خادما .

ونعتقد أن تفسير حديث "من رأى منكم منكرا.." لابد أن يستصحب الآيات العديدة التى حدد الله تعالى للرسل طريقة التبليغ، وضرورة الاقتصار عليه، والحذر من أن يأسى لرفض المشركين. أو أن يحاول اكتساب الإيمان بمختلف الطرق. فمن غير المعقول أن يتصور أحد من عامة المسلمين أو خاصتهم أنه أكثر غيرة على الإسلام من الرسول، أو أن عليه أن يفعل أكثر مما وجه القرآن رسوله ..

ويلحظ هنا أن القرآن أكد هذا المعنى مرارا وتكرارا وأوضح للرسول ..

- ﴿ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء﴾ {٢٧٢ البقرة}
- ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى لمن يشاء﴾ {٥٦ القصص}

- ﴿أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويــهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما تصنعون ﴾

{٨ فاطر}

- ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ {٩٩ يونس}

وحدد القرآن للرسول ما يفعله عند إعراض من يدعوهم ..

- ﴿وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم. أنتم بريئون مما أعمل وأنـــا برئ مما تعملون﴾ . {٤١ يونس}

- ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل﴾ {١٢ هود}

- ﴿وإن ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنمــــا عليــك البــلاغ وعلينا الحساب ﴾ . {٤٠ الرعد}

- ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ . {٩٤ الحجر}

- ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ . {٨٢ النحل}

- ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخـــاف وعيد﴾ . {٤٥ ق}

- ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنـــون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ .

{٥٢ – ٥٥ الذاريات}

- ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليــهم ومــا أنــت عليــهم بوكيل﴾ . {٦ الشورى}

▪ ﴿أما من استغنى فإنت له تصدى وما عليك ألا يزكى﴾ .

{٥ – ٧ عبس}

▪ ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ . {٢١ – ٢٢ الغاشية}

وهذه الآيات التى تقصر صلاحيات الرسول على التبليغ دون محاولة الهداية تقرر حق الآخرين فى الرفض، وأرجاء حسابهم إلى الله تعالى يوم الدين، وتوجه الرسول لأن لا يستشعر غضاضة من ذلك أو يحس ضيقا لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه من طبيعة النفوس التى جبلها الله، وأن الإلحاح فى الوعظ أو الجذب قد يوجد أثرا عكسيا. فى حين أنه لو ترك وشأنه فربما يعيد التفكير فيتوب ويتوب الله عليه وقد يعمل الكثير من الحسنات ليكفر عن سيئاته ويجعل الله تعالى سيئاته حسنات.. فضلا عما يعلمه الله من غيب لا يعلمه الرسول، فقد يكون لهذا الرافض مستقبل فى الإيمان وخدمه الإسلام، وهل هناك من كان أشد عداوة للإسلام – فى فترة ما – من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وقد أصبحا من قادة الإسلام الإعلام .

هذه كلها آفاق قد لا يلم بها الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر خاصة إذا لم يكن عميق الخبرة بالنفس الإنسانية، وهى صفة قلما تتوفر لعامة الناس، وإنما تتوفر لديهم بدلا منها الحماسة والاندفاع. فهذه الآيات ترسم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الموقف الأمثل بحيث يعرف أن دوره ينتهى بمجرد الأداء باللسان أو القلب. أما تطبيق التغيير باليد فلا يكون إلا فى حالات الضرورة المحددة التى أشرنا إليها آنفا، وفى غير هذه الحالات تكون أى محاولة لتغيير المنكر باليد مجافية تماما لروح الآيات، ولن يكون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أكثر حرصا على الإسلام من الرسول الذى كلفه الله بحمل رسالة الإسلام ولن تكون عاطفته أشد وحرصه على الهداية أعظم، ومع هذا فقد وجهه القرآن ﴿وما عليك ألا يزكى...﴾ .

فهذه الآيات هى التى تفسر طريقة فهم وتطبيق حديث تغيير المنكر وهى حاكمة عليه، وضابطة له لأن من أعسر الأمور التفرقة ما بين النية الموضوعية الخالصة فى التغيير، وما يمتزج بها امتزاج اللحم والدم من مشاعر شخصية، وانطباعات خاصة ورغبة فى النهى والأمر "والشخط والنتر" وهى تعود إلى الزهو والغرور، وهما من الموبقات ، ومحاولة تلبيس المعنى الخاص الثوب العام، وهى صورة من النفاق النفسى الذى يتطرق إلى النفس بأخفى من دبيب النمل ..

ومما يلفت الانتباه أن كل الكتابات التقليدية عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتغيير المنكر باليد انحصرت فى تدمير المعازف وما يمت بصلة إلى الموسيقى وتحطيم أوانى الخمر وإلزام النساء بالنقاب والخمار الخ.. وقد استهلكت هذه المجالات الثلاثة جهود كل الكاتبين عن هذا الموضوع من الفقهاء القدامى حتى الكتاب المعاصرين، ولم يتحرك أمر بالمعروف أو إنهاء عن المنكر لمقاومة استبداد الحكام الطغاة.. ولم يفكر أحدهم فى التنديد باستغلال الأغنياء للفقراء ووجود من لا يملك قوت يومه.. ومن يوجد لديه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ولم يثر ثائر على الجهالة والأمية فى حين أن أول كلمة فى الإسلام كانت اقرأ.. وأن رسالة الإسلام كانت إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنه عندما أراد أن يصم العهد السابق عليه أطلق عليه "الجاهلية" .

وهذه الاتجاهات بالإضافة إلى ما أشرنا إليه فى الفقرة السابقة عن **ادعاء الغضب لله والثورة لمحارمه ودخول العامل الذاتى فى ذلك هو ما يوضح لنا أن الصورة فى أذهان "الإسلاميين" سواء القدامى والمحدثين عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تختلف عما أمر به القرآن وطبقه الرسول . مما يوحى بأن ما يجاوز الأمر باللسان أو النية فى القلب إلى ممارسة تغيير باليد منسوخ بنص الآيات القرآنية، باستثناء حالات**

ونرى أن هذه صورة سقيمة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن كانت وليدة طبيعية للمناخ السعودى وللفقه التقليدى (البدوى) السائد فيها .

أما الصورة المثلى فيفترض أن تختلف شكلا وموضوعا. ففى الشكل تأخذ طبيعة جماعية وليست فردية، وذلك بتكوين الجمعيات والهيئات لذلك. لأن العمل الفردى، وأن كان له أهميته التى يحرص عليها الدين ويحميه من الأفتيات باعتباره ممثل الحرية الفردية الثمينة، والتى هى أساس كل الحريات. إلا أنه لم يعد – أى العمل الفردى – فعالا فى عالم التنظيم والتنهيج.. وأما فى الموضوع أو المضمون فيجب التركيز على الأمر بالمعروف أكثر من النهى عن المنكر، ليس فحسب اتباعا للترتيب فى الآية، ولكن أيضا لأن الإيجاب أفضل من السلب. ويغطى هذا المضمون مجالات مثل إشاعة الثقافة والمعرفة والإلمام بالمهارات المطلوبة للمجتمع وتعليم الجاهلين، وقضايا العدالة الاقتصادية والتكافل الاجتماعى الخ.. وقد يؤدى ظهور هذه الجمعيات وحديثها فى الدعوة إلى تكوين جمعيات معارضة، وبهذا تتحقق التعددية ويظهر الرأى والرأى الآخر ويتصارعان فى مجال الفكر ويتحقق الثراء للقضية، ويظهر فى النهاية الرأى الأفضل، حتى وأن لم ينفرد بالساحة لأن هذا ينافى طبيعة التعددية .

مقتضيات التعددية فى المجتمع الإسلامى :

إذا أردنا من باب التحديد تعيين ما تستتبعه التعددية فى مجتمع إسلامى لقلنا إن أول قاعدة تنبثق منها التعددية نفسها هى الحرية كمنطلق لكل خطوة فى النشاط الفردى والجماعى. وقد أوضحنا أن الإسلام – على خلاف ما يظن الناس أو يذهب إليه كثير من الدعاة – لا يتناقض مع فكرة الحرية كأصل والتعددية كمظهر وتطبيقه لها فإن توحيد الله لا يحتمل تأويلا ويستتبع التعددية فى كل ما عداه، كما ذكرنا، والحرية لها ما يقابلها فى "اللغة" الدينية

وهو مبدأ البراءة الأصلية وأن الأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد بتحريمه نص صريح من القرآن .

فضلا عما توصلنا إليه من أن الحكمة أصل من أصول الإسلام يجب أن يستلهم عن وضع السياسات، وهى ما يبعد التعصب وضيق الأفق والاقتصار على ما ورد فى الكتاب لأن النص عليها وارد فى الكتاب نفسه .

ونطاق الحرية فى الإسلام فى مجال الفكر والاعتقاد لا يحده إلا تحول ممارسة هذه الحرية إلى ممارسة قذف وسب أو جعلها وسيلة ابتزاز. أما أى حرية تقوم على منطق وتستند على حجة فلا يجوز أن يوضع عليها قيد، وبالنسبة للحريات الاقتصادية والسياسية فإن التحفظ الوحيد عليها هو العدل حتى لا تتحول الحرية إلى استعباد الجمهور أو التحكم فى الشعوب .

والأخذ بالتعددية فى المجتمع يستتبع وجود صور من التعددية فى المجال السياسى كتداول السلطة وحرية المعارضة وتقييد صلاحيات الحاكم بإرادة الشعب الخ.. وهى تستتبع فى المجال الاجتماعى ظهور منظمات المجتمع المدنى وهيئات الإصلاح وكل ما يرى بعض الناس أنه جدير بأن يعالج عبر هيئة تنظم هذه المعالجة وتعطيها طابعا جماعيا كما يجب أن تكون هناك صحافة حرة تماما باعتبارها "رسالة" فكرية بحيث لا يجوز حتى للمؤسسة الصحفية نفسها أن تحد من هذه الحرية أو تضع القيود عليها. كما يفترض أن توجد المنظمات النقابية طبقا لما يراه العمال أنفسهم باعتبار أنها هيئات يؤسسونها بأنفسهم للدفاع عن حقوقهم ويدخل فى هذا كافة الحريات النقابية التى نصت عليها الاتفاقيات الدولية .

وهناك المجال الحساس للفنون والآداب من شعر أو رواية أو قصة أو تمثيل أو سينما أو موسيقى أو أغان أو رقص.. فكل هذه يجب أن ينظر إليها باعتبارها وسيلة للتعرف على ملكات النفس الإنسانية، وما يمكن أن تقدمه من عطاء وإضافة ونقد وإصلاح أو حتى إشباع لعواطف والاستمتاع

بلهو.. فهذه كلها يجب أن تكفل لها الحرية رغم ضيق كثير من الدعاة الإسلاميين الذين يرون فى بعضها إشاعة للفحشاء.. وقد عالجنا هذه النقطة عندما تعرضنا لأثر غواية الشياطين التى لا مناص منها وقد أوضحت التجربة وطبائع الأشياء أن فرض الرقابات - كائنة ما كانت الحجة - يوجد مفاسد أكثر من التى أريد تجنبها ومن ثم فلا يجوز أن يكون عليها رقابة إلا إذا وجد الرأى العام أن بعضها يمتهن لمشاعرهم، ويطلب بالتدخل

ونحن نرى أن الخطة المثلى أن يترك هذا المجال لأصحابه يتحملون مسئولياته وتقع عليهم أوزاره، كما يستحقون أمجاده، أما الدولة فلا تتدخل، سلبا ولا إيجابا وتنفض يديها منه، وأما الفقهاء فلديهم مندوحة اعتباره انعكاسا للفجور الذى ألهمه الله تعالى النفس الإنسانية أو أنه حرث الدنيا ومتاع العاجلة الذى يتولى الحساب فيه الله تعالى يوم القيامة .

وفيما نرى، فإنه ما دام أصل التعددية - وهو الحرية - هو ما يتقبله الإسلام فإن التعددية ومقتضياتها لا تختلف فى المجتمع الإسلامى عما هى عليه فى المجتمعات الأخرى إلا فى المدى والدرجة وليس فى النوع أو الكيف. لأن الإيمان بالقيم الإسلامية يحول دون الجموح والشطط الذى تتصف به مقتضيات التعددية فى بعض المجموعات الأوربية الحديثة.. لأن المجتمع الإسلامى، وإن كان جزء من المجتمع البشرى الذى يخضع لقوانين عامة - فإنه مجتمع متميز له خصائصه التى ترتفق على الصفة العامة له. وأن لم تجرده منها ...

من مكتبة الإحياء

- نحو فقه جديد
  في ثلاثة أجزاء ..
- استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن ٢١
  كما تراها دعوة الإحياء الإسلامي ..
- مطلبنا الأول هــو الحـــــرية ..
- تثوير القرآن ..

يصدر قريبا

الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة

الكتاب الذي سيحسم قضية الحكم في الإسلام .

✡✡✡

ملحق

عن دعوة الإحياء الإسلامى

ملحق

عن دعوة الإحياء الإسلامى

(١)

فكر وفقه دعوة الإحياء الإسلامى

أشرنا ببعض الإجمال إلى تميز دعوة الإحياء الإسلامى على غيرها، وقد آن الأوان لبسط هذه الفكرة وإقامتها على قواعدها .

فالدعوات الإسلامية قد تدخل ميدان الإصلاح بفكر سلفى فلا تجدد شيئاً. بل تفرض القديم على الجديد وتتمسك بما جاء به الفقهاء لأنهم لم يتصوروا أبداً أن من الممكن الاستغناء عنهم، باختصار تريد أن تعيد الساعة إلى الوراء، وتأبى طبائع الأشياء ذلك. ومن ثم فعملها كله مردود وليس إلا صورة من التماحك مع العصر.. وقد تدخل لعلاج ناحية واحدة، وقلما يمكن تحقيقه لأن الناحية الواحدة مرتبطة ببقية النواحى ولا يمكن إصلاحها على حدة، وقد تدخل الساحة حاملة شعاراً أخاذا مثل "الحاكمية الإلهية" دون أن تعنى بدراسة المضامين العملية له والوسائل التى يمكن بها تطبيقه وآثار ردود الفعل الخ.. ولعل هذه الدعوات "الشعارية" أن تكون أخطر وأسوأ الدعوات. وقد قتل أصحابها فى القديم - الخوارج - بأيديهم الرجل الذى كان الرمز الحقيقى للحاكمية - وهو على بن أبى طالب - وأفسحوا المجال

لمعاوية الذى جاء بالملك العضوض. وقد تعنى بـالتدين الأخـروى علـى حساب التدين الدنيوى .

لقد ضلت هذه الدعوات .. وأضلت .

إن دعوة الإحياء شئ آخر. إنها تعود بالدرجة الأولي إلـى العقـل، بينما تعود كل الدعوات الإسلامية الأخرى إلي النقل. وعندما أعملت العقـل أنتهى بها إلى إيمان بالله يختلف عما جاء به علم الكـلام الإسـلامى. كمـا يختلف عن الموقف الأوربى السلبى الذى فضل أن يتجاهل أعظم قضية فـى الوجود – قضية وجود الله – لأن العامة يمكن أن تستسلم إلى معيار الحواس، البدائى، الذى لا يعبر إلا عن طفولة العقـل الإنسـانى. فمـا دام الله غـير محسوس لا يمكن أن تناله الحواس، فلا داعى للتفكير فيه، أما الفلاسفة الذيـن كان عليهم أن لا يستسلموا لهذا الفهم السقيم، فإنهم فعلا توصلوا إلـى فكـرة وجود الله، ولكنها كانت فكرة غائمة أثرت عليها الفلسفة المادية الغالبة علـى الفكر الأوربى وحكمها القصور البشرى الذى يعجز عن أن يتوصـل إلـى الصورة المثلى لله، ولابد أن يأتى بها وحى من السماء، ولما كانوا فلاسـفة وليسوا أنبياء، فقد وقفوا فى منتصف الطريق .

وفى الوقت الذى رفض فكر الإحياء الإسلامى طريقة ومنهج علـم الكلام، فإنه وجد طلبته فى منهج القرآن الكريم وتلاقى العقل مع الوحى فـى اعتبار أن القضية المحورية فى الإسلام (وبالطبع فى كل دين) هى الإيمـان بالله. ومن أجل هذا جاء البند الأول من ميثاق دعوة الإحياء الإسلامى يـبرز هذا الإيمان أولا وقبل كل شئ. ويـبرزه بـالصورة العقلانيـة / القرآنيـة. ويعتبره نقطة البداية وواسطة العقد فى الإيمان الإسلامى الذى يغطى الكـون كله وليس الإنسان الذى يعيش على كوكب من أصغر كواكب الكون ..

وهذه الصورة المميزة للإيمان بالله هى مـا تمـيز دعـوة الإحيـاء الإسلامى عن بقية الدعوات كافة.. أوروبية. أو إسلامية.. وما يعطيها رشـد الحياة وعمق الدين والتواصل مع الكون .

ومن خصائص دعوة الإحياء الإسلامى أنها لا تقتصر فى النظر إلى الدين على النظر إليه من داخله، كما تفعل بقية الدعوات الإسلامية فتحصر نفسها فيه، ولا تعرف شيئا عما سواه. إن دعوة الإحياء الإسلامى تنظر إلى الدين من خارجه أيضاً [1] بحيث ترى الصورة الكلية للدين فلا تضللها آحاد الأشجار عن الغابة، وهى تصطحب معارف من خارج الدين أيضاً. كما لا تفعل بقية الدعوات. ذلك لأن الحقيقة الكلية التى يمكن أن ترمز إلى الله أشبه ببحيرة كبيرة ينبع منها نهر رئيسى هو الدين، كما ينبع منها أنهار أخرى أقل حجما تحمل أسماء الفلسفة. العلوم، الفنون، والأدب، والاجتماع، والاقتصاد، وتاريخ الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً ونظم الحكم الخ.. وهذه جميعا تنبع من بحيرة واحدة، فإن كل نهر يحمل - بفضل مجراه الخاص. إضافة إلى المصب والإنسان وكل من يلم بما تأتى به هذه الأنهار ويعلم مضامينها فإنه يكون أقدر فهم الدين فعندما يتحدث الإسلام عن حرية الاعتقاد - فإن ما عرفه من تاريخ وحضارة ونظم الحكم وارتباطهما بالحرية سيعزز إيمانه بما جاء به الإسلام عن الحرية، وإذا علم تاريخ ووسائل استغلال المرابين للمدينين، وكيف أن الربا كان يؤدى إلى استرقاق المدين نفسه، فإن إيمانه بتحريم الإسلام للربا سيتأكد، وبالمثل فإنه عندما يعرف ما يؤدى إليه الاستئثار والاستبداد من الكوارث فإن تنديد القرآن بطغيان الحكام والفراعين سيتدعم، وبهذا يكون إيمان المؤمن إيماناً بصيراً وليس أعمى، عميقاً وليس سطحياً. وانعدام معرفة الشيوخ والفقهاء بهذه المعارف واقتصارهم فى فهم الدين على الدين نفسه ووحده جعل إحساسهم بكل ما فى القرآن من قيم كالحرية والعدالة الخ.. ضحلاً وسطحياً. فهم يتحدثون باستمرار عن أن القرآن كرّم بنى آدم، وندد بالاستغلال، ولكن هذا الكلام ليس له أى مضمون عملى لديهم، وهم أنفسهم يمتهنون كرامة الإنسان ويمارسون الاستغلال لأن

---

(١) وسندنا "الشرعى" فى هذا هو أن القرآن الكريم قرن "الحكمة" بالكتاب كأصل من أصول الدين، ومن ثم فكل استهداء سليم ورشيد خارج الكتاب لا يعد شذوذاً عما أراده القرآن لأنه استلهام للحكمة التى نص عليها ..

المضمون العملى الذى هو روح كلامهم إنما يتعزز بفضل معرفة النظم السياسية فى العالم بأسره، وطرق الحكم وأنماط الحضارات وحركات الجماهير الخ.. وهم يجهلون هذا كله "لأنه يخرج فيما رأوا عن إطار العلم الدينى" .

ومن هنا اتسمت دعوة الإحياء الإسلامى بالشمول والانفتاح الذى لا يطيقه، ولا يقبله / الذين حصروا أنفسهم فى "نصوص الأسلاف" .

ولم يحدث أى فارق بين ما تقدمه العلوم والفنون والتاريخ الخ.. وما يقدمه الإسلام لأننا من البداية – وعلى نقيض مسلك الآخرين. عمدنا رأسا إلى القرآن الكريم. ولو أننا – أخذنا بكلام الفقهاء والمفسرين لوجدنا تعارضا كبيرا .

إن دعوة الإحياء الإسلامى عندما انطلقت من القرآن رافضة الالتزام بكلام المفسرين تراءت لها عظمة وروعة، وعبقرية القرآن وتفتحت آفاقه وعطاءه الذى لا يحد، وكانت تحجبه غشاوات مجلدات التفسير. ومن ثم أمكن أن تستلهم معظم مبادئ وأصول دعوة الإحياء الإسلامى من القرآن الكريم نفسه، ووحده. وأن تعززها بشواهد التاريخ .

وقد وجد فقه دعوة الإحياء. أن نصوص القرآن الكريم عن كرامة الإنسان، وحرية الفكر، والمساواة مع المرأة، تزيد عما وضعته المعايير الدولية لها.

* * *

يعد هذا المنطلق القرآنى وجدنا أمامنا السنة، وهى مادة الفقه الإسلامى ولحمته وسداه، وإليها أكثر من القرآن – يعود بناء الفقه الإسلامى والفكر الإسلامى عامة. وإليها ينسب الفقهاء معظم أحكامهم .

ولكن دعوة الإحياء الإسلامى لم تتقاعس، أو تستسلم فأبدعت تخريجين حلت بهما أزمة السنة المستعصية ..

التخريج الأول: ضبط السنة بضوابط القرآن الكريم. وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أنصار السنة نفسها، وفي الوقت، فإنه عند تطبيقه بالفعل (وهو الأمر الذى أحجموا عن ممارسته) قد يستعيد ربع أو خمس ما جاء في الصحاح .

وترفض دعوة الإحياء الإسلامى كل ما يوجه إليها من ادعاء "هل خفى ذلك عن البخارى ومسلم واستكشفتموه أنتم ؟ " وهى تراه نوعا من الفرار من المقولة إلى القائل وشكلا من أشكال الإرهاب وتقديس الأسلاف الذى ندد به القرآن ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ .

نقول بلى، لقد تهيأ لنا من وسائل البحث والتمحيص وبفضل شيوع الثقافة والمعرفة ما لم يتهيأ للسابقين، ومن الطبيعى أن نصل إلى ما لم يصلوا إليه، ولا يمس هذا فى شئ إخلاصهم وتفانيهم وتقواهم .

التخريج الثانى: هو أن كل ما قاله أو فعله الرسول خارج الإطار القرآني إنما جاء بوحي سني، أريد به البقاء ما بقيت الدواعي والأسباب دون أن يكون له تأبيد وحي القرآن .

ولم تبدع دعوة الإحياء الإسلامى هذه الفكرة أو تخترعها من تلقاء نفسها أو بحكم هواها، ورغباتها ولكنها بنتها على مقدمات ثابتة هى :

١. أن القرآن الكريم أغفل ذكر تفاصيل عديدة سواء بالنسبة للشعائر من صلاة أو زكاة أو بقية فرائض الإسلام الخ.. وبالطبع فإن إغفاله هذا لم يكن نسبيا.. ﴿وما كان ربك نسيا﴾. ولابد له من حكمة ..

وما نفهمه من هذا هو أن القرآن الكريم أراد للكليات الكبرى التأبيد، أما تفاصيل هذه الكليات فلم يرد لها التأبيد ولو أراد لذكرها .

٢. لما كان من الضرورى تحديد هذه التفصيلات فإن القرآن وكل تبيانها للرسول ﴿.. لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ .

٣. قام الرسول بهذه المهمة لا من تلقاء نفسه، ولكن طبقا لوحى سنى يختلف فى طريقته ومقتضاه عن الوحى القرآنى الذى كان له طبيعة مميزة ومقتضى صارم هو تبليغ النص القرآنى بحرفيته .

٤. فى الوقت نفسه فإن الرسول نهى عن كتابة حديثه، وأمر من كتب شيئا أن يمحوه. وهذه قضية ثابتة لا يجوز التماحك فيها. فإن التدوين لم يبدأ إلا على رأس المائة الأولى للهجرة على يدى عمر بن عبد العزيز .

ومدلول هذه الواقعة أن الرسول نفسه لم يشأ لما أمر به من تفاصيل صفة التأبيد القرآنية، وبهذا التقى مع القرآن نفسه، وهو الأمر المنتظر.. فما جاء به الوحي السني يظل ما دامت الأوضاع تتحمله، وتتجاوب معه فإذا لم يحدث وجب العودة إلى القرآن الكريم لاستنباط أحكام جديدة تتفق معه، ومع الأوضاع أيضا ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾. دون أن يكون الداعى لهذا هو الهوى أو الاختيان .

وقد صرح بعض الفقهاء ومنهم السيد رشيد رضا، أن الصحابة رفضوا أن يجعلوا الأحاديث دينا عاما ودائما كالقرآن. وذهبت إحدى فتاوى الأزهر أن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم .

بل إن هذا هو ما صرح به الرسول ﷺ فى الحديث عن عوف بن مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو مرعوب متغير اللون فقال: "أطيعوني ما دمت فيكم، وعليكم بكتاب الله عز وجل فأحلوا حلاله وحرموا حرامه" وفى رواية "خطبنا رسول الله بالهجير وهو مرعوب فقال: "أطيعوني ما كنت بين أظهركم وعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث الذى اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروى بعضهم عن بعض ينبئ بأن

الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجودا ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فتملكه الكرب[1] .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامى تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس تشريعا [2] .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامى تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها – كما أشرنا إليه آنفا – تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس تشريعا .

* * *

بعد القرآن والسنة – وجدت دعوة الإحياء الإسلامى – أمامها التلال المتعالية، والمجلدات المتعددة من أحكام المذاهب وما وضعه الفقهاء على مدار ألف عام. ودعوة الإحياء الإسلامى تنحى كل هذا جانبا، لأنها لا تقبل أن يفكر الآخرون لها أو ترى الأمور بعيون ميتة، ولأنها تؤمن أن القرآن الكريم يحثها على الفكر، وعلى "ما أنزل الله" وليس إتباع الأباء والأسلاف. فهؤلاء الأسلاف رغم تفانيهم وإخلاصهم – لم يرزقوا الكمال .

ولا تجد دعوة الإحياء الإسلامى حرجا فى أن تعلن أن الفقهاء عندما أجمعوا على النسخ في القرآن وعلى تحديد القتل عقوبة للمرتد كانوا

---

(١) أنظر الحديث فى زيادات محاسن الاصطلاح على مقدمه ابن الصلاح للبلقينى تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (دار المعارف بمصر) ص ٦٨٤ – والحديث أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١/١٧٠ وقال رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون .

(٢) لا يتسع المجال للتفصيل وقد عولج الأمر فى الجزء الثانى من كتاب "نحو فقه جديد" وهو المخصص للسنة فعلى من يريد التفصيل أن يعود إليه. وكذلك فى كتابنا "الأصلان العظيمان. الكتاب والسنة" .

يصدرون عن روح عصرهم، والصناعة الفقهية التي وضعوها – ذلك لأنهم ليسوا معصومين، أما دعوى الإجماع فقد أنكرها الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ولهذا فلا تجد دعوة الإحياء مشكلة مع التراث الفقهي لأنها إما أن تستبعده تماماً، أو أن تستأنس به في بعض الحالات وفي جميع الحالات تضع فقهها الخاص .

وسنقدم هنا أمثله توضح كيف أن هذا الفقه الجديد يحل العديد من أزمات المجتمع الإسلامى التى اعتمدت على الفقه السلفي. فقد ميزنا بين العقيدة والشريعة، وهو تمييز أشار إليه الشيخ شلتوت رحمه الله في كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة" ولكن الشيخ شلتوت لم يذهب بهذا التمييز إلى منتهاه، وإلى ما يستتبعه، الأمر الذى قام به فقه الإحياء الإسلامى إذ وجد أن العقيدة لها هدف وآليات تختلف عن هدف وآليات الشريعة. فالعقيدة تتجه إلي القلب وتستهدف الإيمان وتستلهم الوحي ووسائلها قراءة القرآن وتدبره والقربات إلي الله تعالي .

بهذا الأساس لا يمكن للعقيدة أن تزج بنفسها في خضم الدولة، أو السلطة. إن مجالها الوحيد هو الفرد، وقلبه وكل توجيهات القرآن الكريم العقيدية هي إلي الأفراد. وإذا جاوزت العقيدة هذا النطاق الطبيعي لها إلي الدولة، أو السلطات، أو حتي مثلت نفسها في مؤسسة خاصة بها فإنها ستوجد الدولة الثيولوجية التي لا تكون دولة العقيدة [١] ولكن دولة الكهنوت، وهو أسوأ تشويه يمكن أن تصاب به العقيدة. بل ويقضي عليها كعقيدة .

إن هذا التكييف قد حل أكبر أزمة في مشكلة الحكم الإسلامي لأنه أبعد العقيدة عن مجال الحكم وحصرها في الأفراد، ولم يكن هذا تحكماً أو هوى ولكن بناء علي طبيعة العقيدة .

---

(١) والمصطلح نفسه سقيم، فليس هناك دولة للعقيدة ولكن يمكن أن نقول أمة العقيدة .

أما الذى يدخل فى مجال الحكم فهو "الشريعة"، والشريعة هى عالم العلاقات الإنسانية: أصحاب الأعمال مع العمال، الحكام مع المحكومين، الأغنياء مع الفقراء، الرجال مع النساء الخ.. ففي هذه العلاقات يكون الهدف هو العدل وتكون الوسيلة هي القانون، ويكون الفيصل هو العقل وبهذا يصبح "للدولة" الإسلامية في أحكامها طابعا عقلانيا .

وإيمان الأفراد بالعقيدة يتفاعل تفاعلا جدليا مع التنظيم العقلانى للدولة. فتطبيق الدولة للشريعة نتيجة إيمان الأفراد وطلبهم يكفل لهذا التطبيق الصفة الديمقراطية، والطبيعة العقلانية للشريعة تحمى العقيدة من تسلل الخرافة .

وفى قضية الفنون والآداب والتعددية بصفة عامة فإن فقه الإحياء **عاد بها إلى الإنسان لا إلى الإيمان** واعتبرها من حرث الدنيا وثمرة النفس الإنسانية بفجورها وتقواها. ومن ثم فلا تطبق عليها ضوابط العقيدة ولكن ضوابط الشريعة. على أن الاثنتين – العقيدة والشريعة – تحتفظان بمساحة كبيرة من الحرية، حرية الفكر والاعتقاد والتجليات الإنسانية التى تتمثل فى الفنون والآداب، والعقيدة نفسها تنص على أن عطاء الله تعالى ليس محظورا عن الذين يبتغون حرث الدنيا وأن حسابهم إنما يكون لله تعالى ليوم القيامة .

وبهذه الطريقة يمكن أن يوجد فى المجتمع الإسلامى صور عديدة من الفنون قد يستهدف بعضها إرواء الشهوات لأن هذا ما لم يستبعده القرآن من الإنسان وما ألهم الله النفس البشرية من فجور وتقوى ولا تحاسب هذه الفنون كما لو كانت نشاطا إسلاميا، لأنها نشاط إنسانى يعود حسابه وعقابه إلى الله يوم القيامة، ما دام ليس هناك إجبار على ممارسة هذه الفنون أو مشاهدتها أو الاشتراك فيها بقوة أو بأمر السلطة .

أما قضية الاقتصاد ومشكلة الربا المعقدة، فإن دعوة الإحياء رأت بنظرة واحدة أن كلمة "ولا تظلمون" "بضم التاء" الأخيرة فى الآية ﴿فإن تبتم

فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ يتضمن اعترافا بأثر التضخم وأن تجاهله يؤدى إلي الحيف علي الدائن وظلمه، والظلم كريه في الإسلام سواء كان للمدين أو الدائن، ومن ثم فليس هناك تحريم علي أكثر أنواع الربا انتشارا في عصر يجعل التضخم أمرا لازما .

وتوصل الفقه الجديد إلى نظرية تلاقى الحقوق والواجبات بين العمال وأصحاب الأعمال التى تحسم شافة تناقض المصالح والصراع الطبقي وتحوله إلي اختلاف حول قسمة العائد يحسمه العدل الإسلامي. كما لم تجد صعوبة فى تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيرا يوجب ويقر الاتفاقيات الجماعية أو عقد العمل المشترك كما قد يطلق عليه فى بعض الحالات وهو جوهر النقابية [١] .

وقد عزز الفقه الجديد قاعدة "إساءة استخدام الحق" وما تتطلبه من ضبط لأنها تحقق العدل، وهو الهدف الرئيسى للشريعة، قدر ما عزف عن "سد الذرائع" لأنها تخالف أسلوب المقاصة الذى وضعه القرآن الكريم "إن الحسنات يذهبن السيئات" كما تستبعد توجيهاته فى التوبة والندم وغفران الله الذنوب .

* * *

هذا عرض سريع للطريقة التى توصلت بها دعوة الإحياء الإسلامى إلى أسسها، ووسيلة تعاملها مع هذه الأسس، وكيف أنها بذلك بددت الكثير من الشبهات وحلت الكثير من المشكلات التى أوجدتها تعقيدات الفكر السلفى والفقه التقليدى .

---

(٢) أنظر كتابنا الإسلام والحركة النقابية من ص ٨٢ إلى ص ٨٥ .

(٢)

نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام

لما كانت نزعة الماضوية هى أبرز ما تتسم به الدعوات الإسلامية المعاصرة، وأنها هى السمة المشتركة بينها جميعا. فقد رأينا أن نفرد لتفنيدها هذا الفصل الموجز لعله أن يشفى هذه الدعوات من دائها العضال، فمهما كان نبل العاطفة التى تشد هذه الدعوات إلى الماضى المجيد، ونحو القرون الثلاثة التى ارتأت أنها أفضل القرون، ونحو الشخصيات النابهة، العظيمة، والمباركة بصحبة الرسول، فإن التحليل العميق لهذه النزعة يثبت أنها ليست من الإسلام، بل إنها تناقض الإسلام .

وتناقضها مع الإسلام يتأتى من أمرين :

الأول: أن الإسلام يمثل المستقبلية فى حين أن هذه النزعة تمثل الماضوية .

الثانى: أن الإسلام يمثل الموضوعية، وهذه النزعة تمثل الذاتية .

وفيما يلى تفصيل هذا الإجمال ..

المستقبلية والماضوية :

يغرس الفلاح البذور فى الأرض ناظرا للمستقبل الذى سيجعل هذه البذرة نباتات باسقة، وهو لا يتصور أنه سيأكل منها فورا، كما أنه عندما غرسها فى الأرض حرم نفسه لذة استهلاكها، ولو أنه أستهلكها لكسب

الحاضر وخسر المستقبل، ولحصل على حمل جوال من "التقاوى" بينما كان من الممكن لو زرع هذه التقاوى أن توجد له أطنانا من المحاصيل .

ويوفر التاجر من أرباحه فلا ينفقها على ملذاته، ولكنه يدخرها ويعيد استثمارها ويحرم نفسه مما توفره من استمتاع لأنه يعمل للمستقبل.. لا للحاضر.

الإسلام كهذا الفلاح والتاجر، إنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها مزرعة للآخرة، فهو ينظر للمستقبل إلى مدى أبعد مما يتصوره كل المستقبليين، لأنه يستخدم الحياة الدنيا بأسرها كقنطرة للحياة الآخرة. بحيث تكون الحياة عملا ودأبا وكدحا وكفاحا ومجالا لأداء الصالحات واجتناب السيئات وهذا العمل والكفاح هو سمة كل الدعوات "المستقبلية" وتميز الإسلام هو أنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها قنطرة للمستقبل فى حين أن الدعوات المستقبلية الأخرى تضع مدى محددا أو أن يسخر الأب حياته لمستقبل أبنائه .

ففكرة العكوف على الماضى واستلهامه مخالفة تماما للإسلام لأنها تحول دون العمل والإبداع وأداء الصالحات وكبح الشهوات وتوجد بديلا عن هذا كله فى التغزل فى هذا الماضى والإشادة به، أو تجعل الشحاذة منه عملا وحرفة، وهى فى أعماقها مرض نفسى تبرر به النفس عجزها عن العمل، وسيادة السلبية عليها، والإسلام فى مستقبليته لا ينظر إلى الماضى ولا يقدس القبور، أو يعلى بنيانها، بل يطمس معالمها، وإذا كان قد سمح بزيارتها فللاعتبار، وقد رأى أن التمسح بأركانها أو تصور أى قوة فيها نوع من الشرك والماضوية فى حقيقتها "قبورية" ووثنية ..

الموضوعية والذاتية :

والجانب الثانى الذى تتنافى فيه الماضوية مع الإسلام. أن الإسلام موضوعى. أى أنه يمثل الفكر، والمبدأ، والقيم فى حين أن الماضوية تمثل

التراث، والأشخاص، والممارسات. وفى حين أطلق الإسلام على اتباعه أسم "المسلمين" أى الذين يؤمنون بالإسلام وقيمه الموضوعية فإن الماضوية جعلت أصحابها يحملون أسم "السلفية" وما السلفية إلا أتباع السلف وطرائقهم ومذاهبهم وقد رفض الإسلام هذا وسمى اتباعه المسلمين أو المؤمنين ويتضح مدى الفرق في أن وسيلة الموضوعية هي الفكر، وأن وسيلة السلفية هي التقليد فالفرق بين الموضوعية والسلفية هو الفرق بين التفكير والتقليد، وقد يصور هذا الآيات العديدة التى تندد بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله (الموضوعية) قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (السلفية) .

ولما كان الإسلام محكما فى بنائه: كالجسد الواحد الذى يعمل كل عضو فيه لمصلحة الجسم كله دون أن تتنافر مهمة عضو مع مهمة بقية الأعضاء أو تعمل ما يسئ إلى الجسد بل تتلاقى كلها فى العمل له. فإن عزوف الإسلام عن الماضوية يتلاقى مع نفوره من الذاتية ويجمع هذا وذاك فى نهيه عن تقديس الأشخاص أو توثين الأشياء أو اتباع الأباء والأجداد. ومن دلائل ذلك تمجيده للمسجد وتنديده بالقبور وأمره بالتفكير ونهيه عن التقليد، وبهذا يكون الإسلام بمستقبليته وموضوعيته فى واد والسلفية بماضويتها وذاتيتها فى واد آخر .

وقد يجعلنا هذا نفهم كيف أن الدعوات الإسلامية عندما تمسكت بالماضوية كأحد رموزها ومقدساتها، فإنها فى الحقيقة كانت تؤمن بفكرة تناقض الإسلام ! وأن هذا من أكبر أسرار فشل هذه الدعوات وعجزها عن التعامل مع الواقع، ولو كانت الماضوية من الإسلام لكان يجب أن تنتصر ولو دعوة واحدة من هذه الدعوات .

والقرآن الكريم والسنة النبوية سواء فى رفض الماضوية وسلفيتها وذاتيتها لأنهما معا يدعوان إلى المستقبلية والموضوعية .

وأى شئ أكثر حسما وقوة فى التنديد باتباع الأباء والأجداد من هـذه الآيات .

- ﴿والذين إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾. {١٧٠ البقرة}
- ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾. {١٠٤ المائدة}
- ﴿قالوا اجئت لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾. {٧٨ يونس}
- ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾. {٤٠ يونس}
- ﴿لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين﴾. {٥٤ الأنبياء}
- ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون﴾. {٢٢ الزخرف}
- ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾. {٦٢ هود}

وكل الآيات أو الأحاديث التى تشيد بأشخاص فإنما يكون هذا لأعمالهم وليس لأشخاصهم كما لا يضفى القرآن على أحد من المخلوقين عصمة أو توثينا وقد خص الله تعالى رسله بوحيه وتوجيهه، ولهذا جاز للمؤمنين أن يكون الرسول أسوة لهم وهى صفة ليست لغيره، وعندما أمتدح الصحابة فإنه أمتدحهم لأنهم ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا﴾ وختم الآية ﴿وعد الله الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ وكل آيات المدح فى القرآن تنصب على ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ولم يعد الله تعالى العرب بوراثة الأرض ولكن "الصالحين" ولم يعط للأنبياء من سلطة سوى التبليغ والبيان وحذرهم فى عبارات جازمة تجاوز هذا .

وقال الرسول "مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم أخره" بل لقد فضل الرسول ﷺ الذين آمنوا ولم يروه، وأورد الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عدداً من الأحاديث بهذا المعنى منها :

- عن أبى محيزيز قال قلت لأبى جمعة رجل من الصحابة رضى الله عنه حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثكم حديثا جيداً، تغدينا مع رسول ﷺ ومعنا أبو عبيده بن الجراح فقال يا رسول هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى .

- وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وددت أنى لقيت إخوانى فقال أصحاب النبى ﷺ نحن إخوانك. قال أنتم أصحابى، ولكن إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى .

- وعن أبى إمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ طوبى لمن آمن بى ورآنى مرة وطوبى لمن آمن بى ولم يرنى سبع مرات [1] .

وهذا يدل على أن الإخلاف قد يكونون أفضل من الأسلاف وأن الذين لم يشاهدوا النبي وآمنوا به أفضل من الذين شاهدوه وآمنوا به .

فإذا قيل إن الرسول قال عن أصحابه "والذى نفس محمد بيده لو أن أحداً انفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه". فإن ذلك إنما كان لأن كفاحهم مع الرسول أدى لظهور ونجاح الإسلام، وهو – فى النهاية – يصب فى تيار المستقبلية والموضوعية .

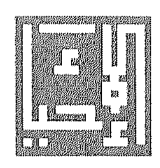
---

(١) أنظر الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ الوالد رحمه الله ج١ ص ١٠٥ – ١٠٧ وقد أورد البخارى فى خلق أفعال العباد رواية عن أبى جمعة بالمعنى نفسه .

فهرس

رقم الإيـــداع بدار الكتب ٥٨٦١ لسنة ٢٠٠١
الترقيـم الدولى I.S.B.N. 977-5378-33-8

مطبعة أبناء وهبـه حسان
٢٤١ (أ) ش الجيش – ميدان الجيش
٥٩٢٥٥٤٠ / القاهرة



التعددية
في مجتمع إسلامي

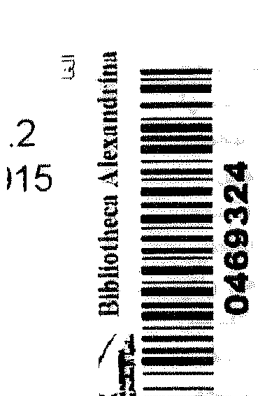
توهم كثير من الناس أن الأمة الإسلامية لما كانت أمة التوحيد، فإن هذا يفترض الأحادية في النظم، بمعني أن يكون هناك رئيس واحد، ونظام واحد، وحزب واحد، وصحافة واحدة الخ ..

ويذهب هذا الكتاب عكس ذلك تماماً ويوضح أن توحيد الله تعالي يستتبع التعددية فيما عداه. فالتوحيد مقصود به الله وحده، ومد معني الواحدية علي غيره يمكن أن يكون نوعا من الشرك، ويستشهد علي ذلك بعدد كبير من الآيات القرآنية التي تقرر التعددية وتتقبل الاجتهادات داخل الإطار الفسيح. بل إن انفتاح القرآن وصل إلي درجة الاعتراف بكل الأديان، وبكل الرسل وخص الله تعالي نفسه بالفصل فيما فيه يشتجرون ..

وتحت عنوان «الحكمة: أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعددية» يوجه الكتاب الانتباه إلي أن القرآن يدعو إلي «الكتاب والحكمة» ويفند ما ذهب إليه الشافعي من أن الحكمة هي السُنة لأن القرآن يوردها في كثير من الآيات بما ينافي هذا المعني فضلاً عن أن السُنة نفسها تدعو إلي الحكمة وتعتبرها ضالة المؤمن، وأن تقرير القرآن للحكمة أصلاً من أصول الإسلام يوجب استلهام النافع والمفيد من كل الثقافات والحضارات كائنة ما كانت وأن المسلم يكون أحق بها.

وفي فصل خاص يعرض الكتاب تصوره عن «التعددية في مجتمع إسلامي» فيشير إلي مبدأ رئيسي في الإسلام هو قبول الاختلاف وأنه لا يثير عداوة أو حساسية لأنه مما لا مناص عنه، ولأن الله تعالي خص نفسه بالفصل فيه يوم القيامة وأن الاختلاف غير الخلاف. فالاختلاف يوجب التعددية ولكن الخلاف يؤدي إلي الواحدية ثم ينتقل إلي العاملين الرئيسين في المجتمع الإسلامي إلا وهما هداية الأنبياء وغواية الشياطين.

وفي الفصل الأخير ضوابط التعددية يتحدث الكتاب عن أنه وإن كانت
من ناحية المبدأ ليست في حاجة لآليات تضبطها، لأنها -كالحرية- تضـ
بنفسها، إلا أن التجربة تثبت ضرورة وجود هذه الآليات التي تضع «قوا
وتكفل لها الاستمرار وتحول دون الانحراف. ويعرض الكتاب في هذا ا
ضرورة توفر حد أدني من الفهم الإسلامي الرشيد الذي يرفض التعصب
كما يعرض «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهو يعالج هذا المبـ
معالجة تفصيلية ويقارن ما بين الآيات المتعددة في القرآن وبين حديث
منكم منكرا الخ .. المشهور ويوجب ضبط الحديث بالقرآن بحيث ينحصـ
باليد علي الحالات العاجلة التي تؤدي السلبية فيها إلي وقوع جريمة
المفهوم التقليدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويورد رأيا للإما
حسن البنا أبداه عندما حطمت مجموعة من «مصر الفتاة» بعض الحا



دار الفكر الإسلامي

الثمن ٥ جنيهات